جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

إشكاليات دراسة التأريخ في مناطق السودان الأوسط دراسة نقدية في نشأة الإسلام وانتشاره في سلطنة وداي العباسية من خلال الدراسات التاريخية التشادية

Problems Of Studying History In The Regions Of Central Sudan A Critical Study Of The Emergence Of Islam And Its Spread In The Abbasid Sultanate Through Chadian Historical Studies

إعداد

د/ زينب تيراب عبدالله

قسم اللغة العربية، جامعة آنجمينا، تشاد

د/ أحمد عبدالرحمن سماعين

قسم اللغة العربية، جامعة الملك فيصل بتشاد

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الرابع-نوفمبر)
(الجزء الرابع (١٤٤٦هـ/٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

إشكاليات دراسة التأريخ في مناطق السودان الأوسط
دراسة نقدية في نشأة الإسلام وانتشاره في سلطنة وداي العباسية
من خلال الدراسات التاريخية التشادية

زينب تيراب عبدالله

قسم اللغة العربية، جامعة آنجمينا، تشاد .

أحمد عبدالرحمن سماعين

قسم اللغة العربية، جامعة الملك فيصل بتشاد

البريد الإلكتروني: : *aasumain1973@gmail.com*

الملخص

المتتبع لتاريخ الحركة العلمية في تشاد في ثوبها العربي؛ يلاحظ تطورا كبيرا في الفكر والتحليل والنتاج العلمي في شتى المعارف، ولا سيما في التاريخ والأدب والنقد واللغة. وهذا أمر يبعث الأمل في النفوس والاطمئنان بها، والفضل في ذلك يعود إلى جامعة الملك فيصل . بتشاد: حيث فتحت الآفاق للتعمق في الدراسة التاريخية، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء ، وخاصة الممالك التشادية، وحضارتها وفكرها، وفنها. وتوّجت هذه الجهود العظيمة نحو التقدم بإنشاء مجلة البحوث العلمية المحكمة التي أتاحت للباحثين النهمين فرصةً لا يمكن توقعها، وقربت مسافات صعُب تجاوزها، وقمة مرهق الوصول إليها، وهذا لا شك إضافة كبيرة في بناء هيكل حضاري لتشاد. طالعنا في مجلة البحوث العلمية في عددها الثاني يناير ٢٠١٦م مقالة تاريخية تعالج دخول الإسلام وانتشاره في منطقة تشاد، وبالتحديد في سلطنة دار وداي العباسية للدكتور الصادق أحمد آدم. والمقالة من خلال عنوانها تشير إلى موضوع حيوي وجدير بالدراسة، والبحث؛ خصوصا وأن هذه المنطقة تعاني من شح المصادر في تاريخها القديم السابق لقيام السلطنة فيها. والباحث من خلال

معالجته لتاريخ دخول الإسلام وانتشاره في وداي أشار إلى أفكار جديرة بأن يقف المرء حولها، ومواضيع مهمة لو صحت لكانت إضافة كبيرة للمكتبة الإنسانية كافة، ولكننا للأسف لم نر في نتائج مقالته ما يحتوي على تلك الإشارات الخطيرة والآثار المهمة التي أشار إليها في المتن.

الكلمات المفتاحية : التأريخ : السودان، نشأة الإسلام ، وداي العباسية، التشادية.

Problems Of Studying History In The Regions Of Central Sudan A Critical Study Of The Emergence Of Islam And Its Spread In The Abbasid Sultanate Through Chadian Historical Studies

Zainab Tirab Abdullah
Department of Arabic Language, University of N'Djamena, Chad.
Ahmed Abdel Rahman Samaeen
Department of Arabic Language, King Faisal University, Chad

Email: *aasumain1973@gmail.com*

Abstract:

The follower of the history of the scientific movement in Chad in its Arab guise; There is a significant development in thought, analysis, and scientific production in various fields of knowledge, especially in history, literature, criticism, and language. This is something that brings hope and reassurance to people, and the credit for that goes to King Faisal University - Chad: it opened horizons for deepening historical study, especially with regard to the history of sub-Saharan Africa, especially the Chadian kingdoms, its civilization, thought, and art. These great efforts towards progress culminated in the establishment of a peer-reviewed scientific research journal, which provided avid researchers with an opportunity that could not be expected, brought close distances that were difficult to overcome, and a summit that was exhausting to reach. This is undoubtedly a great addition to building a civilizational structure for Chad. In the Scientific Research Magazine, in its second issue, January 2016, we saw a historical article dealing with the introduction and spread of Islam in the Chad region, specifically in the Abbasid Sultanate of Dar Wadi, by Dr. Al-Sadiq Ahmed Adam. The article, through its title, refers to a vital topic worthy of study and research. Especially since this region suffers from a scarcity of sources in its ancient history prior to the establishment of the SultanateIn which. Through his treatment of the history of the introduction of Islam and its spread in my valley, the researcher pointed out ideas that deserve one's attention around them, and important topics that, if true, would be a great addition to the entire human library, but unfortunately we did not see in the results of his article anything that contained those dangerous references and important effects that he referred to in the text.

Keywords: ***History: Sudan, The Emergence Of Islam, The Abbasid Valley, Chad.***

مقدمة

المتتبع لتاريخ الحركة العلمية في تشاد في ثوبها العربي؛ يلاحظ تطورا كبيرا في الفكر والتحليل والنتاج العلمي في شتى المعارف، ولا سيما في التاريخ والأدب والنقد واللغة. وهذا أمر يبعث الأمل في النفوس والاطمئنان بها، والفضل في ذلك يعود إلى جامعة الملك فيصل ـ بتشاد: حيث فتحت الآفاق للتعمق في الدراسة التاريخية، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، وخاصة الممالك التشادية، وحضارتها وفكرها، وفنها. وتوّجت هذه الجهود العظيمة نحو التقدم بإنشاء مجلة البحوث العلمية المحكمة التي أتاحت للباحثين النهمين فرصةً لا يمكن توقعها، وقربت مسافات صعُب تجاوزها، وقمة مرهق الوصول إليها، وهذا لا شك إضافة كبيرة في بناء هيكل حضاري لتشاد.

طالعنا في مجلة البحوث العلمية في عددها الثاني يناير ٢٠١٦م مقالة تاريخية تعالج دخول الإسلام وانتشاره في منطقة تشاد، وبالتحديد في سلطنة دار وداي العباسية للدكتور الصادق أحمد آدم.

والمقالة من خلال عنوانها تشير إلى موضوع حيوي وجدير بالدراسة، والبحث؛ خصوصا وأن هذه المنطقة تعاني من شح المصادر في تاريخها القديم السابق لقيام السلطنة فيها.

والباحث من خلال معالجته لتاريخ دخول الإسلام وانتشاره في وداي أشار إلى أفكار جديرة بأن يقف المرء حولها، ومواضيع مهمة لو صحت لكانت إضافة كبيرة للمكتبة الإنسانية كافة، ولكننا للأسف لم نر في نتائج مقالته ما يحتوي على تلك الإشارات الخطيرة والآثار المهمة التي أشار إليها في المتن.

بعض الأفكار التي بثّها الباحث الدكتور الصادق أحمد آدم أثارت فينا بعض الملاحظات؛ لذا وددنا أن نشارك بها في هذه المقالة علها تساهم في تصحيح بعض

المفاهيم الخاطئة العالقة بأذهان المثقفين، لا سيما في أوساطٍ مختصة يُفترض فيها أن تتكئ على العلمية والمنطق إذا فُقدت المصادر المكتوبة.

وقبل النقد الذي نوجهه إلى هذه المقالة وتحليلها بهدف تقويمها وإعادة بوصلتها إلى الاتجاه الصحيح في دارسة هذا الجانب من التاريخ؛ نعرض الأفكار المهمة التي احتوتها هذه المقالة، ومن ثم تحليلها؛ مستندين في ذلك إلى المصادر والمراجع التي فاتت الباحث الدكتور الصادق أحمد آدم. كما نستفيد من التحليل والمنطق فيما انعدمت فيه المصادر المكتوبة.

دور الباحثين

وقبل المناقشة نريد توضيح دور كل باحث في هذا البحث حيث قامت الباحثة الدكتورة زينب تيراب بمناقشة المصادر الأساسية لدخول الإسلام في كانم وكذلك مراحل الهجرات العربية وهي الباحث الأساسية في البحث. وقام الباحث الثاني بدور المناقشة في مسألة صحبة البغدادي ابن السوداء.

أولا: عرض:

١- تناول الباحث تاريخ دخول الإسلام إلى تشاد مؤرخا له بوصول طلائع الإسلام إلى سلطنة كانم عام ٤٦ هـ لكنه لم يجهد نفسه ليبحث عن المصادر التي أشارت إلى تلك الوقائع والأحداث التي أسست لقاعدة الإسلام فيما سمي بعد ذلك بقرنين تقريبا بكانم. واعتمد فقط على مراجع ثانوية معاصرة، مثل الشاطر بصيلي عبدالجليل، وجان شبيل والبرفسور محمد صالح أيوب. وكرر مثل هذا في أكثر من موضع مما يدل على اضطراب في المقالة.

٢- ثم ذهب الباحث ليتحدث عن وصول صحابة رسول الله ﷺ إلى الشمال الشرقي لتشاد وبالتحديد في مناطق: فضاء كلاعيد، عراضه، وأم شعلوبة وغيرها، حيث

جاء هؤلاء الصحابة ودعوا الناس إلى الإسلام؛ فاستجاب لهم الناس وعصاهم العرب وقاتلوهم ففروا، وقتل أبرزهم، وربما كان القتيل قائدهم، وهو ابن السودة. وهذا الموضوع حيوي دون شك، وسيكون أكثر حيوية إذا استطاع الباحث إثبات ما ذكر مرسلا، وسيعود له هو قصب السبق في إثبات ذلك علميا، وبه تبنى لتشاد مفخرة عظيمة؛ إذ إنها ضمت في أحشائها من جالس رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولكنه للأسف حدث مصنوع مختلق وهمي يرفضه التاريخ، ويمجه المنطق وتنافيه الموضوعية العلمية، بل وحتى الروايات الشعبية، وهو ما سنوضحه في الأسطر اللاحقة.

٣- ذكر الباحث أن من الوسائل التي ساعدت على دخول الإسلام في سلطنة وداي الوجود العربي السابق لبعثة النبي صلي الله عليه وسلم، وهنا يظهر تناقض وسؤال، أما التناقض فإن العرب عامل من عوامل انتشار الإسلام في وداي كما قال الباحث، وهذا يتناقض مع قوله: إن الصحابة الذين وصلوا من الشمال دعوا العرب فأبى هؤلاء وخدعوهم فقتلوهم. أما السؤال كيف أنهم ساعدوا على دخول الإسلام، وهم من رفضه وقتلوا دعاته؟ وهل يوجد حقا عرب في هذه المناطق قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام؟

٤- ذكر الباحث أن ثمة وسائل ساعدت على انتشار الإسلام في وداي أهمها: الدعاة، وهنا تحدث الباحث بطريقة نظرية عن الدعوة والدعاة، دون أن يدعم قوله بنماذج منهم؛ خصوصا وأن هذه المنطقة قد أسلمت في وقت مبكر، قبل قيام السلطنة في القرن السابع عشر، ثم ذكر وسيلة أخرى، وهي العلماء وذكر نماذج في حكم النموذج النكرة، أمثال: أبي مالك وعلي دينار وغيرهم مما ظهر في ازدهار هذه

السلطنة. وهناك ملاحظة عجيبة في هذه المقالة ما الفرق بين الداعية والعالم في ذلك الوقت؟ ووسيلة ثالثة وهي التجارة، والأمر نفسه نجده في تحليل هذه الوسيلة؛ حيث تحدث فيها حديثا نظريا دون أن يذكر واقعا يعضد ما ذكر. واكتفى بهذه الوسائل وكأنها الأساسية في نشر الإسلام. وأنهى مقالته بخاتمة صدرها بنتائج وذيلها بتوصيات، أما النتائج فلم يأت فيها بأية نتيجة جديدة، مع أن بعض الأفكار التي أثارها الباحث مثل وصول صحابة رسول الله إلى مناطق وداي؛ أمر يستحق أن يكون في صدارة النتائج، ومثله في الأهمية وجود قبائل عربية قبل بعثة المصطفي عليه الصلاة والسلام في هذا المكان.

وسنتناول هذه النقاط الواحدة تلو الأخرى بالنقد العلمي الموضوعي؛ متخذين من المنهج التاريخي والمقارن دليلا في المناقشة والتحليل، والغرض من ذلك هو المشاركة العلمية التي قد تفيد البحث في بناء قاعدة متينة نرجوها لإكمال هذا الهرم العظيم الذي ستفتخر به الأجيال المقبلة.

الباحث الذي نختلف معه في هذا الطرح هو صديق حميم وأخ كريم، وكلنا عضو فاعل في الاتحاد العام لمؤسسات دعم اللغة العربية في تشاد, وكنا نتناقش مع مواضيع ذات صلة بما ذكر، بكل شفافية ورحابة صدر؛ فنتفق في أمور، ونختلف في أخرى، وهذا جزء مما اختلفنا فيه. وجزاه الله خيرا لأنه أراد أن تكون هذه المواضيع مجال بحث ونقاش.

ثانيا: نقد وتحليل:

قبل الولوج في محتوى المقالة نعرض ملاحظات عامة فيها، تعتبر شكلية لكنها من الأهمية بمكان بحيث تعطينا صورة عامة عن المقالة وقيمتها العلمية.

المقالة تفتقد إلى الرصانة التي ينبغي أن تتسم بها الكتابة العلمية في مواضيع كهذه، كما تفتقد إلى المنهجية العلمية التاريخية التي يفترض أيضا أن تكون متوفرة فيها؛ خصوصا وأنها في مجلة علمية محكمة. نذكر نموذجا واحدا للتدليل على هذا الزعم. الباحث يتحدث عن مرحلة تاريخية بعينها، لكنه يتحدث بمصطلحات حديثة مثل: تشاد، ووداي، وغيرها؛ في حين يتحدث هو عن القرن الأول الهجري السابع الميلادي. يقول د. الصادق: "وبما أن دار وداي تقع في القارة الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى ودخلها الإسلام عن طريق سلطنة كانم؛ إلا أنها كانت تعتبر إحدى ولاياتها؛ أما سلطنة كانم نفسها؛ فقد دخلها الإسلام في النصف الأول من القرن الأول الهجري السابع الميلادي عام ٤٦هـ الموافق ٦٦٦م"..[١] لا يصعب على القارئ إدراك الخطأ العلمي والمنهجي لهذه المقولة. إذ لا يوجد في تلك الفترة شيء يقال له كانم، أو وداي ولهذا فالأصح أن يقال دخل الإسلام في كورة أو مجموعة من كور السودان الذي قامت فيه فيما بعد كانم عام كذا مثلا...

١. لا يهتم الباحث بالتدقيق في معلوماته؛ فيتساهل في الاقتباس حتى يقع في مغالطات تاريخية وأحيانا في أخطاء كبيرة. يقول متحدثا عن فتح مصر ناقلا عن كتاب طريق الهدى والرشاد: "ذكر الشيخ مكي بأن فضيلة الشيخ الحاج عمر بشير سمع من رجال الدين الثقات أثناء إقامته في مدينة (فدا) حيث كان يعمل فيها مدرسا. قالوا: لما تم فتح مصر عام ٢٢هـ على يد سيدنا عمرو بن العاص الصحابي الجليل رضي الله عنه.. [٢]"؛ بينما الشيخ مكي كان أكثر دقة منه في

---

(١) آدم (دكتور) الصادق أحمد آدم: دخول الإسلام في سلطنة وداي الإسلامية، مجلة البحوث العلمية، العدد الثاني، يناير ٢٠١٦ ص٢٠

(٢) المرجع نفسه ص٢٢

تحريره لتأريخ دخول الإسلام في مصر حيث ذكر التاريخ الحقيقي لفتح مصر. ومعلوم أن مصر اكتمل فتحها في ٢٠ هجرية وليس ٢٢هـ كما جاء في المقالة. ثم إن الشيخين مكي عبد الله وعمر بشير ليسا مصدرا في فتح مصر! فما أكثر المصادر القديمة التي عالجت هذه المواضيع!

٢. يورد الباحث أحيانا معلومات جزافية دون توثيق كقوله في عدد صحابة رسول الله ﷺ: "أن صحابة رسول الله ﷺ أكثر من مئة وعشرين ألف صحابي[١] بينما المتداول تاريخيا حول عدد صحابة رسول الله ﷺ ليس كذلك، وليس هناك من يعلم عدد صحابته عليه الصلاة والسلام إلا الله تعالى.

٣. تغيب الأمانة العلمية في بعض الأحيان بسبب التساهل الشديد والاستعجال في البحث وعدم التأني فيه؛ فيسند الباحث أحيانا معلومات خاطئة لأناس هم منها براء. يقول الباحث: "ذكر سيدي محمد ولد عبد الله أن تسرب الإسلام إلى البلاد الواقعة جنوب الصحراء تم في وقت مبكر، منذ بزوغ فجر الإسلام على يد القائد عقبة بن نافع، ويقول أشار ابن عبد الحكم إلى حملة لعقبة بن نافع إلى كوار التي يقطنها سكان مسلمون قادمون من الأصقاع وأغلبهم بربر"[٢]. وفي الحقيقة لا ابن عبد الحكم قال هذا، ولا سيدي ولد عبد الله كما سنوضح.

٤. بالرغم من أن المقالة تناولت موضوعا تاريخيا قديما؛ إلا أنها خلت تماما من المصادر التاريخية التي يتوقع أن تعتمد عليها، وتنطلق منها، وهذا لا شك عيب

---

(١) المرجع نفسه ص٢٥

(٢) نفسه ص٢٢

كبير في البحث.

٥. من عجائب هذه المقالة أن الباحث زعم أنه قام بمقابلة مع الشيخ طاهر عبد الغني يوم٧ أبريل ٢٠١٢م في منزله بأبشة؛ إلا أن نص المقابلة منقول من كتاب طريق الهدى والرشاد للشيخ مكي الذي بدوره قام بمقابلة معه. يقول الدكتور الصادق: "وروى الشيخ طاهر عبد الغني في مدينتي فدا وكلاعيد في شأن ما يقال عن دخول صحابي في الأراضي التشادية؛ فسأل العديد من الإخوان ورجال الدين وأبرزهم (دادي)؛ فأخبره بأن الشخص ...الخ[١] انظر النص في كتاب الشيخ مكي المذكور[٢].

٦. الباحث ذكر أنه قام ببعض المقابلات ولكنه لم يكلف نفسه ليقابل العرب الذين نعتبرهم طرفا في القضية، ويَعتَبرون قصة هذا الرجل (أي ابن السوداء) جزءا من تراثهم الثقافي والتاريخي.

٧. الملاحظ في المقالة أن الاقتباسات أكثر من تحليل الباحث وآرائه فيما تحدث عنه، بل إن الاقتباسات أعظم مما قد أبدى الباحث وفسر أو حلل.

i. موضوع جدير بالدراسة؛

عنوان كهذا يفترض فيه اعتماد الباحث على مصادر أصول في هذا العلم إذا صح التعبير، وهذا أمر لا نحسبه يفوت على أصغر الباحثين؛ إلا أن باحثنا استهان وتكاسل، أو لعل الدعوة إلي الله والخروج في سبيله؛ شغله عن الغوص في أمهات

---

(١) نفسه ص٢٣

(٢) مكي عبد الله: طريق الهدى والرشاد، ص

الكتب، والتنقيب بها، والتمحيص فيها؛ فاتكأ ناقلا من مراجع معاصرة غير مختصة، مثل الشيخ مكي عبدالله التجاني، أو من مراجع ثانوية معاصرة في هذا المجال، مثل البرفسور عبد الرحمن عمر الماحي في كتابه الدعوة الإسلامية في إفريقيا، والبروفسور محمد صالح أيوب وغيرهم، حيث يعتمد في تاريخ دخول الإسلام في كانم عليهم. فيقول: ذكر أيوب نقلا عن كاني أن وجود المسلمين في كانم برنو يرجع إلى سنة ٦٦٦م[١]، وكرر ذلك في أسلوب مضطرب أكثر من مرة، يدفع بعضه نواصي بعض.

تحقيق حول حملة عقبة بن نافع إلى كور بالسودان وتطور الإسلام؛

نلاحظ فيما ذُكر من نصوص ثانوية أوردها الدكتور الصادق أنه ركز على تاريخ حملة عقبة بن نافع، وحرص على عام ٤٦هـ دون أن يقف على المصادر التي تناولت هذه الحملة بهذا التاريخ أو سواه. ونحن نعتقد جازمين أن النظرة العلمية توجب علينا الوقوف على المصادر الأساسية التي ناقشت الحدث؛ طالما هي متوفرة وممكن الوصول إليها! وما دام الأمر كذلك؛ فلا بد من ذكر هذه المصادر حتى يتضح الأمر؛ ذاكرين ذلك بتسلسلها التاريخي؛ متخذين من المنهج التاريخي دليلا ومنظما، ونأمل أن نكون بذلك قد صحّحنا كثيرا من المقولات التي نوردها أحيانا بشكل جزافي.

يقول ابن خياط الشيباني الذي عاش في القرن الثالث الهجري: "سنة ثَلَاث وَأَرْبَعين...فيهَا غزا عقبَة بْن نَافِع الفِهري، وافتتح كورا من بِلَاد السودَان"[٢] والكور

---

(١) دكتور الصادق أحمد آدم ص٢١

(٢) أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ): تاريخ خليفة بن خياط تح: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة – دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٧ص٢٠٦

جمع كورة وهي كما وصفها القزويني: "ناحية من بلاد السودان جنوبي فزان، بها عين الفرس، قيل: إن عقبة بن نافع ذهب إلى كوار غازيًا، فنزل ببعض منازلها؛ فأصابهم عطش حتى أشرفوا على الهلاك، فقام عقبة وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فجعل فرس عقبة يبحث في الأرض حتى كشف عن صفاة؛ فانفجر منها الماء، وجعل الفرس يمصه، فرأى عقبة ذلك، فنادى في الناس أن احتفروا، فحفروا وشربوا فسمي ذلك الماء ماء الفرس، وافتتح كوار وقبض على ملكها، ومن عليه وفرض عليه مالًا"(١). وابن خياط عاش في القرن الثالث الهجري وقد سبقه وهب ابن منبه في وصف هذه المناطق.

وقال أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ١٠٧١م) (٢): "وافتتح {أي عقبة بن نافع} فِي سنة ثلاث وأربعين كور السودان" ويؤيده في ذلك ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (المتوفى: ١١٧٦م) (٣)، وابن الأثير في كتابيه الكامل في التاريخ، وأسد الغابة؛ حيث يقول: "وَفَتَحَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ كُوَرًا مِنْ كُوَرِ السُّودَانِ"(٤)، ووافقه في العبارة

---

(١) زكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى: ٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر – بيروت ص٥٩

(٢) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م ص١٠٧٦

(٣) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ): تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ص٥٣١

(٤) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، ج٣، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ص

←←←

الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز(المتوفى: ١٣٤٨م) [١] في كتابيه العبر، وتاريخ الإسلام ووفيات المشاهير[٢]، وأبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: ١٣٦٧م) [٣]، وعبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ١٤٠٦م) [٤] ويوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ١٤٧٠م) [٥]، وعبد الرحمن بن أبي

→→→

١٧وأسد الغابة في معرفة الصحابة، تح، علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م ص٣٧٢٢

(١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ): العبر في خبر من غبر، تح، أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت ص ٣٧١١

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج٤، عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م، ص ١١

(٣) أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي (المتوفى: ٧٦٨هـ): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ص ٩٧

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج٣ دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م ص١٢

(٥) يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر ص ١٢٥

بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ١٥٠٦م) [١]، وعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكبري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٦٧٩م) [٢]، إذن من خلال هذا السرد لمصادر التاريخ؛ يتضح لنا أن المؤرخين والجغرافيين والرحالة كانوا على علم بهذه البقعة (بلاد السودان) بل عرفوا تضاريسها ونباتها وأشجارها واقتصادها وسياساتها، وكل شُعب المجتمع فيها، ويعتبر عام٤٣هـ الموافق ٦٦٣م هو بداية مرحلة اكتشاف دعوية.

كما يظهر هنا أن أغلب المصادر أشارت إلي تاريخ بداية هذه الحملة وهو عام ٤٣هـ ماعدا ابن عبد الحكم الوحيد الذي أشار إلي عام ٤٦هـ قال: "ثم خرج ... عقبة بن نافع الفهريّ سنة ستّ وأربعين، ومعه بسر بن أبى أرطاة، وشريك بن سميّ المرادي... ثم مضى على جهته من فوره ذلك إلى قصور فزّان، فافتتحها قصرا قصرا،{إلى أن يقول}، حتى انتهى إلى أقصاها فسألهم: هل من ورائكم أحد؟ قالوا: نعم، أهل خاوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل، وهو قصبة كوار؛ فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلما انتهى، تحصّنوا، فحاصرهم شهرا، فلم يستطع لهم شيئا. فمضى أمامه على قصور كوّار فافتتحها، حتى انتهى إلى أقصاها، وفيه ملكها، فأخذه فقطع إصبعه، فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال: أدبا لك، إذا

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م ص١٤٩

(٢) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م ص٢٣٢

أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا"[1].

معلوم أن مناطق الشمال الإفريقي لواتة وسرت وطرابلس وإفريقيا (تونس) وغيرها قد شهدت ردة عن الإسلام ولا يستبعد أن يكون عام ٤٦ هـ ضمن الأعوام التي قاتلت فيها القوات المسلمة المرتدين في كوار مرة أخرى بدليل الرواية التي ذكرها ابن عبد الحكم حيث (قطع عقبة أصبع ملك كوار) ولما سأل عن هذه الفعلة قيل له أدبا لك في حربك للعرب، وفرض عليه جزية جراء تمرده، وهذا التفسير وجيه، وإلا فكيف نبرر هذا الفعل غير اللائق من عقبة؟

ولهذا فالراجح عندنا في تاريخ حملة عقبة دون شك هو عام ٤٣هـ الموافق لعام ٦٦٣م يُذكر هنا أن ابن خياط الشيباني أكبر سنا من ابن عبد الحكم. كما أن كثيرا من المؤرخين وافقوا ابن خياط فيما ذهب إليه من توثيق لحملات عقبة بن نافع.

ونؤكد هنا أن الفاتحين لم يبقوا في كوار بل عادوا إلى مراكزهم في الشمال الذي يرتد عن الإسلام كلما وجد لذلك الارتداد سبيلا؛ نشير هنا إلى أحداث الردة التي حصلت في المناطق المفتوحة في الشمال الإفريقي، حيث اضطرت جيشَ عقبة بن نافع للرجوع إلي المناطق والدخول مع أهلها في حروب طاحنة حيث شهدت ثلاث ردات؛ فكان "في كل مرة ينتهي العرب من الإغارة عليها يرتدون ويعلنون عصيانهم على المسلمين". يقول ابن الأثير: " لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام، فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم، ثم رأى {أي عقبة} أن يتخذ مدينة يكون فيها عسكر المسلمين وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (المتوفى: ٢٥٧هـ): فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ ص ٢٢٢

البلاد، فقصد موضع القيروان". وقال ابن عذارى: "وصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية {تونس} في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها ودخلها، ووضع السيف في أهلها فأنهى من بها من النصارى ثم قال: "(إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام؛ فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر)" [١]. وأورد ابن خلدون كلامًا في الردة قريبًا من هذا[٢]. ويفهم من هذا الكلام أن حملة عقبة بن نافع إلى كوار لم تتقدم إلى أي مكان في السودان سوى مجموعة الكوار التي فتحها المسلمون، ولذلك يستبعد أن يكون هنالك جنود من الصحابة قد انطلقوا مشرقين نحو المجهول إلى أن يصلوا مناطق كلاعيد وعراضة وغيرها.

ويمكننا أن نعتبر عام ٤٣هـ نواة الدعوة الإسلامية في مناطق السودان الأوسط، ولا شك أن التواصل كان مستمرا بين أهل كوار والمسلمين في المناطق الأخرى في الشمال مثل زويلة ولواته وغدامس، ويبدو أن ظاهر الردة التي كانت تحصل في أوساط البربر تسري عدواها في الكوارين (سكان واحات كوار)، فلربما اصطدموا مع الجيش الإسلامي مرات ومرات، أو أن ثمة سكانا آخرين في تلك النواحي قد أبدوا عصيانا عليه، يقول البلاذري: وفيها {يعني سنة مئة وست عشرة} استعمل (أي هشام ابن عبد الملك)... عَبْد اللَّهِ بْن الحبحاب مولى بني سلول فأغزى عَبْد الرَّحْمَنِ بْن حبيب بْن أبي عُبَيْدة بْن عقبة بْن نافع الفهري السوس وأرض السودان فظفر ظفرا لم ير أحد مثله قط، وأصاب جاريتين من نساء ما هناك ليس للمرأة منهن إلا

---

(١) ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تح: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٣ م ص ١٩

(٢) ابن خلدون ج٣، مصدر سبق ذكره، ص١٢

ثدي واحد وهم يسمون تراجان (و) سنة سِتّ عشرَة وَمِائَة فِيهَا كتب هِشَام بْن عَبْد الْملك إِلَى عُبَيْدَة بْن الحبحاب مولى بَنِي سلول وَهُوَ واليه عَلَى مصر فولاه أفريقية فَدَخلَهَا فِي سنة سِتّ عشرَة وَمِائَة فَخرج عَبْد الْأَعْلَى بْن حديج مولى مُوسَى بْن نصير وَكَانَ صفريا فَخرج بطنجة فَخرج إِلَيْهِ عَمْرو بْن عَبْد اللَّهِ الْعَبْسِي وَكَانَ واليا لِابْنِ الحبحاب فَقتل عَمْرو وَانْهَزَمَ أَصْحَابه وفيهَا أغزى ابْن الحبحاب عَبْد الرَّحْمَن بْن حبيب بْن أَبِي عُبَيْدَة بْن عقبَة بْن نَافِع السوس وَأَرْض السودَان فظفر وَأَصَاب ذَهَبا كثيرا"[1].

إذن من خلال هذه النصوص التي ذكرناها لا يوجد مسلمون في كوار قبل عام ٤٣ هـ كما يقول الصادق، بل إنه حاول أن يلبس كلام الباحث الموريتاني ما ليس فيه؛ حيث يقول الدكتور الصادق: "ويقول (أي سيدي ولد عبد الله) أشار ابن الحكم إلى حملة لعقبة بن نافع إلى كوار التي يقطنها سكان مسلمون قادمون من الأصقاع وأغلبهم بربر"[2]. وعندما رجعنا لابن عبد الحكم في كتابه (فتوح مصر والمغرب) لم نجد هذا الكلام، فقلنا إن باحثنا معذور لعل الأستاذ سيدي ولد عبد الله هو الذي خلط الأمور، فرجعنا إلى بحث سيدي المسمى (دخول الإسلام في تشاد) فوجدنا الرجل بريئا مما ذكر الدكتور الصادق، بل كان دقيقا في تحليله لوضع الإسلام في كوار وغيرها من المناطق من خلال مناقشات في مراجع أخرى.

حتى هذا العام نعني عام ١١٦هـ لا نعرف شيئا عن مناطق ودّاي، بل إن حياة الإسلام نفسها فيها كانت غامضة، إلى أن حل عام١٣٢هـ الموافق ٧٥٠م حيث ظهر في الساحة سياسيون مهاجرون عرب جدد لينشئوا دولة في المناطق التي وصلوا

---

(١) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ): فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال- بيروت، ١٩٨٨ م ص٢٢٩ وانظر ابن الأثير، الكامل ج٤ ص ٢٢٠

(٢) دكتور الصادق أحمد، مرجع سبق ذكره ص٢٢

إليها، أو لينشروا الدعوة الإسلامية فيها، بصورة أوسع يقول البكري: "وبين زويلة وبلد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون، ويزعمون أنّ هنالك قوما من بني أميّة صاروا إليها عند محنتهم بالعبّاسيّين، وهم على زيّ العرب وأحوالها"(١).

ومن خلال وصول الأموميين إلى هذه المناطق أصبحت ديار كانم دون غيرها -على الأقل- معروفة في المغرب والمشرق، وقد تدفق الدعاة فيها، وفي هذه المرحلة حفظ التاريخ اسم الهادي العثماني الذي يُتوقع أن يكون له دور كبير في نشر الإسلام في منطقة كانم بعد قيامها في القرن التاسع الميلادي. يقول العمري متحدثا عن كانم: "وهذه البلاد بين إفريقيّة وبرقة ممتدة في الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط، وهي بلاد قحط وشظف وسوء مزاج مستول عليها، وأحوالها وأحوال أهلها خشنة، وأول من نشر الإسلام فيها الهادي العثمانيّ، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وصارت بعده لليزنيين من بني ذي يزن، والعدل قائم في بلادهم، ومذهبهم مذهب الإمام مالك رضي الله عنه"(٢). وقام هذا الداعية بتعليم ملوك كانم بعض السور القرآنية، وأحكام الإسلام. ولما كان الإسلام دين المملكة؛ دخله الناس أفواجا، ودون تردد، وتم ذلك في القرن الحادي عشر الميلادي في عهد السلطان أومي بن جلمي وفي هذه الفترة أي نهايات القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر الميلادي، شهدت المناطق في الشمال الإفريقي برقة وفزان

(١) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ): المسالك والممالك، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ص٦٥٨

(٢) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (المتوفى: ٧٤٩هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٤، المجمع الثقافي، أبو ظبي الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ ص ٩٧

وإفريقيا (تونس) هجرات كثيفة من القبائل العربية من بني هلال وسليم، وبدأت التغريبة الهلالية بالذات تتمدد إلى الجنوب حيث مناطق كانم وأقاليمها الشمالية الشرقية (مناطق ودّاي ودار فور) وانتشر الإسلام بصورة انسيابية بين القبائل المحلية في هذه الديار؛ مما سهل لقيام حواضر إسلامية فيما بعد في القرن الخامس عشر الميلادي في مناطق ودّاي، وتوسعت رقعة الإسلام بعد الانتشار الواسع للقبائل العربية في القرون اللاحقة، وخاصة من القرن الرّابع عشر إلى القرن السادس عشر، وترسخت دعائمه بقيام السلطنة في عهدها الثاني في بدايات القرن السابع عشر بقيادة المجدد عبد الكريم جامع.

إذن انتشار الإسلام في مناطق دار وداي لا بد أن ينظر إليه في إطار التطور الاجتماعي الذي كان يحدث بصورة سريعة ومتلاحقة في كانم من جهة، وقيام الهجرات العربية من مصر إلى الجنوب والجنوب الغربي، بل ومن الغرب من جهة أخرى.

ولأجل ذلك فالحديث عن تاريخ الإسلام في وداي لا بد أن يمر بالحديث عن التطور الديموغرافي فيها. ولهذا فأن تقفز من القرن السابع الميلادي إلى السابع عشر الميلادي دون توضيح العلاقة الاجتماعية والسياسية ذات الدور المركزي فهذا خلل كبير.

ii. لا وجود لأثر صحابة في منطقة وداي؛

ذكر الباحث الصادق أحمد آدم اعتمادا على روايات ذكرها الشيخ مكي عبد الله التجاني وأضاف إليها مقابلات قام بها: بأن ثمة صحابة من صحابة رسول الله قد وصلوا إلى الجزء الشمالي مما سمي فيما بعد بدار وداي، ودعوا الناس إلى الإسلام، وأجابهم الكثيرون، ورفضه البعض. يقول الصادق نقلا عن الشيخ مكي الذي روى عن الشيخ عمر بشير أحد المعاصرين: "لما تم فتح مصر عام ٢٢هـ على يد سيدنا

عمرو بن العاص ... أرسل بدوره جيوشه إلى برقة بقيادة عقبة بن نافع رضي الله عنه وبعد فتحها دخل بعض أصحابه إلى شمال تشاد وفيهم ابن سودة والذي ما زال قبره في مكان يسمى (أم حجر) شمال أم شعلوبة وجنوب فدا"[١]. وذكر سبب قتله قائلا: إن ابن سودة وجماعته وصلوا إلى منطقة تسمى عراضة واستضيفوا من قبل أهالي البادية، ولما دعوهم إلى الإسلام خدعوهم وهجموا عليهم، فخرج ابن السودة، وعندما أراد الرجوع إلى الوراء وهو يعاني من ألم الجروح استشهد في الطريق ودفن في منطقة أم حجر... وما زال قبره حتى الآن يقصده الزوار"[٢]. وأضاف إلى هذه الروايات روايتين قام بها ليعضد ما ذكره الشيخ مكي؛ حيث يقول في مقابلة له مع خيري سنوسي إن هناك صحابيا أو تابعيا دفن بالمنطقة السالفة الذكر. وعن سبب موته قال إن ابن سودة وجماعته كانوا يحملون الزكاة التي جمعوها من أصحاب الأموال فتعرض إليهم مانعو الزكاة وقاتلوهم، وهناك جرح ابن سودة وفر بعض جماعته. ويقول سكان المنطقة التي قتل فيها كان يسكنها العرب ويتجولون حولها[٣].

وتوصل بعد ذلك قائلا: "ومما سبق يتضح لنا بأن هناك رجلا صالحا دخل إلى بلاد شمال تشاد، ودعا الناس إلى الإسلام، ولكن يبدو أنه من الصحابة أو التابعين، والأقرب إلى الصواب أنه صحابي... وربما يكون اسم الصحابي هو عبد الرحمن بن الأسود"[٤].

---

(١) دكتور الصادق أحمد آدم مرجع سبق ذكره ص ٢٢

(٢) نفسه ص٢٣

(٣) المرجع نفسه ص٢٤

(٤) المرجع نفسه ص٢٥

موضوع مهم فعلا يحتاج إلى مزيد من الوقفات حوله، وهو وصول صحابة إلى شمال تشاد في مناطق فضاء وكلاعيد وعراضة وغيرها؛ كما في الروايات التي أوردها الشيخ مكي عبد الله والدكتور الصادق أحمد آدم.

قبل تفنيد هذه الروايات نشير إلى أخطاء منهجية وهي أن المقابلات التي قام بها الباحثان الشيخ مكي عبد الله والدكتور الصادق مقابلات مع أشخاص معاصرين يتحدثون عن أحداث مر عليها أكثر من ألف وأربعمئة عام، وهذا أمر لا يقبله المنطق العلمي، لأنه يمكن لأيّ امرئ أن يؤلف مثل ذلك ويسند ما يقول إلى ثقات، وحتى لو قبلنا الرواية يجب أن نخضعها إلى محاكمة العقل والمنطق والعلم. ثم إن كلا الباحثين أخفق ـ برغم أسلوبهما غير المعقول في معالجة التاريخ ـ بأن لم يتصلا بالعرب الذين كانوا يُعتبرون طرفا أساسًا في هذا الحدث، كما يَعتبرون قصة ابن السوداء جزءًا من تراثهم، فلا يكاد يوجد بينهم رجل لا يعرف هذه القصة، ومع ذلك فإنهم لم يقولوا إنه من الصحابة، بل لم يقولوا إنه من التابعين ولا من الصالحين؛ ويذكرون القصة بتفاصيلها المملة في العصر الفاطمي أو العصر المملوكي.

يمكن أن يعذر الشيخ مكي عبد الله؛ لأنه غير مختص في هذا المجال، ولكن لا يعذر صاحب المقالة الذي نحسبه من رجال التاريخ في تشاد. نعود هنا لتحليل الروايات التي أوردها الشيخان: الشيخ مكي عبد الله التيجاني، والشيخ الدكتور الصادق.

الذي يبدو أن الدكتور الصادق إنما كان ناقلا فقط، لم يحلل هذه الروايات أو يتوسع في مناقشتها، بل حاول فقط أن يزيد عدد الرواة فيها، والذين لا صلة لهم بهذا الحدث التاريخي إطلاقا؛ إلا مبررا يذكره بطريقة غير مباشرة دوما بعبارة (قال أهل المنطقة) أو ما شابه ذلك؛ والعرب الذين يقول فيهم بأنهم وجدوا في هذا المكان قبل بعثة النبي ﷺ؛ ألا يعتبرون من أهل المنطقة؟

كما يلاحظ أن كثيرا من الباحثين يعتقدون وصول صحابة إلى هذه المناطق دون إيراد أي دليل؛ بل إن الروايات التي يعتمدون عليها ناقصة، وتتداول في إطار ضيق، وتروى بطرق أخرى مختلفة في المناطق نفسها في إطار أوسع، ولعل الذي يجعل الكثيرين يؤمنون بذلك ويتعصبون له هو كتابة هذا الموضوع من قبل شيخ كبير في الطريقة التيجانية، وهو الشيخ مكي عبد الله التجاني. أو أن الموضوع نفسه متعلق بالصحابة فمن البداهة أن يتعامل المرء معه بعاطفة عمياء، ولذلك ليس الدكتور الصادق وحده من كان يؤمن بهذا، بل هناك كثيرون غيره يرون ذلك وعندما تناقشهم لا يعرفون إلا هذه القصة التي سردها الشيخ مكي؛ لكن المرء يستغرب أن يكون أصحاب الاختصاص في التاريخ يقبلون مثل هذه الأقوال الواهية دون أي قراءة محايدة لما يكتب أو يروى!

من حيث المبدأ إن هناك كثيرا من الصحابة قد دخلوا مصر وعبروا ليبيا وصولا إلى إفريقيا (تونس) وكل المغرب الأقصى، منهم من عاد إلى الجزيرة العربية ومنهم من قضى نحبه في تلك البقاع، أو عاش ليموت فيها، ليس هناك أدلة مما كتب في مصادر التاريخ التي اطلعنا عليها: أن جيش عقبة بن نافع الذي وصل إلى واحات كوار يضم صحابة كما أن احتمال وجودهم فيه أمر وارد؛ لكن المعروف أن الجيش عاد فورا بعد فتح كوار إلى مناطق الردة في الشمال طرابلس وأفريقيا(تونس) وغيرها.

والمعلوم بداهة هو أن الفتوحات تتحرك نحو الحواضر أو تجمعات البشر حيث كانوا، وليس تحركا عشوائيا، كيفما اتفق؛ بل استفاد الفاتحون العرب من خبرات البربر وعلاقتهم بالجرمانيين حين وصلوا إلى مناطق الجنوب دخلوا واحات كوار والتي تقع اليوم في النيجر. وهذا دليل على أن الحملات تتحرك نحو الحواضر المعلومة، وإلا فإن شمال تشاد اليوم (فضاء وكلاعيد وعراضة) كان أقرب مسافة من تجاه مصر منه إلى كوار. وهذا يدل من ناحية أخرى على أن هذه المناطق هي حديثة النشأة، ولم تعرف بهذه المفاهيم إلا بعد مجيء العرب إليها، ويفهم من أسمائها أنها عربية

كما يفهم أن الطريق الشمالي الشرقي، أو طريق الأربعين لم يعرف إلا بعد قيام مملكة كانم على أبعد تقدير وقيام دار فور ووداي على الأرجح.

لم تذكر المصادر التاريخية أو كتب الرحالة والتراجم أو المصادر التي اهتمت بسير الصحابة أن صحابيا يدعى ابن السوداء، بل الذي عرف بهذا الاسم شخص يسمي عبد الله بن سبأ أحد المجرمين الذين يثيرون القلاقل في عهد سيدنا عثمان وكان من الذين يؤلهون عليا رضي الله عنه. كما لم يعرف صحابي بابن سودة كما يكتبه الشيخ مكي عبد الله ويتبعه في هذا الصادق.

المجاهد العظيم عقبة بن نافع فتح كوارا وغيرها من الواحات في فزان على رأس ٤٠ فارسا؛ فهل يعقل أن يكون ثم قائد آخر يتجه شرقا دون أي دليل وحده أو مع جماعة كما يذكر ثم ينهزم ولا يعرف له أي خبر؟ إن المعروف في تلك الحقبة أن الجيش الإسلامي هو أقوى الجيوش على الكرة الأرضية بسبب الراية الربانية التي يحملها، ولذا يستبعد أن ينهزم من عصابة كما يذكر الشيخ مكي عبد الله.

إن آخر الصحابة وفاة هو أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني. وقد توفي عام (١٠٢، أو ١٠٧، أو ١١٠هـ) وفي هذه الفترة لا يوجد عرب في هذه المناطق التي ذكرها الدكتور الصادق؛ بل إن العرب الذين وفدوا إلى هذه الأماكن وما عرف فيما بعد بوداي وشرق دار فور؛ وصلوا إليها في قرون لاحقة نتعرض لها في حينها.

وما ذكر عن وصول صحابة إلى المناطق المذكورة (فضاء وكلاعيد وعراضة) غير صحيح؛ لأن عقبة لم يصل إلى شمال تشاد بل وصل إلى كورة أو مجموعة كوار تقع جنوب مناطق غدامس ولوته، وهي اليوم تقع شمال دولة النيجر، وهذا ما ذكرته المصادر سابقا، بل إن عقبة نفسه لم يكن صحابيا. يقول أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي المتوفي (٤٦٣هـ): "عقبة بْن نَافِع بْن عبد قَيْس الفهري ولد على

عهد رسول الله ﷺلا تصح لَهُ صحبة"[1]، وقال ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم المتوفى(٦٣٠): "عقبة بْن نافع بْن عَبْد القيس بْن لقيط بْن عَامِر بْن أمية بْن الظرب بْن الحارث بْن عَامِر بْن فهر الْقُرَشِيّ الفهري ولد عَلَى عهد رَسُول الله ﷺ لا تصح لَهُ صحبة[2]" وقال ابن حجر العسقلاني: "عقبة بن نافع القرشي روى عنه أنس، ذكره ابن منده، وقال: مات سنة سبع وعشرين، هكذا في التجريد، ولم أر له في الصحابة لابن منده ذكرا [3].

وهكذا لا يوجد تفصيل دقيق في حملة عقبة بن نافع إلى كوار عن أحوال الجيش والمشاركين فيه؛ فكونه يحوي كثيرا من التابعين هذا صحيح، ولكن أن يكون بينهم صحابة لم نقف على نص مما اطلعنا عليه من مصادر تناولت هذه الحملة، ثم لا ندري كيف توصل الباحث إلى أن هناك صحابيا يدعى ابن سودة كان من بين جيش عقبة؛ بل رجح أنه عبد الرحمن ابن الأسود، ولا ندري علام اعتمد في هذا الترجيح؟

---

(١) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب تح: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م ص١٣\١٠٧٥

(٢) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤، تح: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م ص ٥٧

(٣) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ ص ٤٣٥ وانظر صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث - بيروت - ٢٠٠٠م ص ٦٠\١٢٠

إذ لا يوجد صحابي بهذا الاسم! والناس قالوا ابن السوداء فهل يوجد داع للتحريف والاجتهاد؟ ثم لا ندري كيف توصل إلى هذا! حيث إنه لم يشر إلى أي مصدر، بل لم يحلنا إلى أي مرجع، غير أنه أرسل كلاما عاما لا يثبت أمام النقد، وبعد هذا كله يقول الصادق: " والأقرب إلى الصواب أنه {أي ابن السوداء} صحابي... وربما يكون اسم الصحابي هو عبد الرحمن بن الأسود"؛ ونحن نقول حتى عبد الرحمن بن الأسود الذي أقحمه الصادق هنا لم يكن صحابيا بل كان من التابعين ولم يمت مقتولا بل مات على فراشه عام ٩٩هجرية.

لنسلم جدلا أن من بين جيش عقبة بن نافع، صحابة يتقدمهم ابن السودة كما ذكر الشيخ مكي عبد الله؛ كيف لهذا القائد أن يشق تلك الفيافي مشرقا من مناطق كوار إلى مناطق كلاعيد وفضاء دون أن يقع في أي قوم خلال هذه الرحلة الطويلة جدا، وقد قالت المصادر إن أهل كوار لما سئلوا عمن وراءهم ذكروا أن لا خلق خلفهم. يقول ابن عبد الحكم: "فسألهم {أي عقبة} هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل: ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة، فانصرف عقبة راجعا[١] اعتمادا على هذه الإجابة عادت الحملة إلى أدراجها في الشمال خصوصا بعد الردة التي قام بها البربر في طرابلس وتونس. يقول الدكتور الصادق: إن ابن سودة وجماعته عند رجوعهم إلى الشمال كانوا يحملون الزكاة التي جمعوها من أصحاب الأموال وعندئذ تعرض إليهم مانعو الزكاة في الطريق وقتلوهم وهناك جرج ابن سودة وفي بعض جماعته"[٢]. لكن هذا الكلام ينافي واقع القوة الإسلامية في تلك القرون، إذ إن الجيش الإسلامي كان الجيش الأقوى في تلك الحقب فكيف يفر من عصابة أو قبائل مارقة كافرة!!

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، مصدر سبق ذكره، ص٢٢٣

(٢) الدكتور الصادق أحمد ص٢٤

يقول: "إن ابن سودة جمعت له الزكاة" يمكننا أن نتساءل لماذا جمعت له الزكاة؟ ومن يكون هو؟ أهو حاكم؟ إن كان كذلك ففي أي إقليم حكم؟ وإن كان هو من الدعاة فقط؛ فهل يستحق أن تجمع له الزكاة؟ ثم إلى من يحملها؟ وما المصادر التي قالت هذا الكلام؟

كما ذكرنا أن الباحث لم يتعرض في المقابلات إلى العرب الذين قتلوا ابن السوداء، والذي اعتقده الباحثُ أنه صحابي، وما هو والله بصحابيّ، ولكي تتضح هوية هذا الرجل يمكننا إيراد الرواية العربية عنه، متى حدثت الحادثة؟ وكيف قتل، ولماذا؟ ومن يكون؟ للقصة عند العرب تفاصيل دقيقة لا يكاد يوجد بينهم من لا يعرفها من وداي إلى دار فور.

العرب يسمونه ابن السوداء (كرسي الجدات)، وبعضهم يقول إنه، البغدادي ابن السوداء كرسي جدات، وهو من عبيد السلطنة المملوكية في مصر، وعندما ساءت الأحوال في مصر، وهمّش العرب في سياسة الدولة، وأصبح المماليك هم سادة مصر والشام، ونزعت الأرض منهم وجردوا من قيادات الجيش، وفرضت عليهم ضرائب مقابل الإقامة في مصر؛ قامت ثورات عربية عديدة ضد السلطة المملوكية الجائرة، وانهزم العرب فيها أمام المماليك، فهُجّروا من صعيد مصر قسرًا نحو الغرب والجنوب؛ فأُتلفت القبائل تحت أحلاف منها الحلف الهلالي، والحلف الجذامي الجهني، اتجه الأول نحو الغرب (برقة ـ وفزان ـ وتونس) حتى دخلوا في هجرة عكسية كانم وما حولها، واتجه الثاني إلى الجنوب الغربي مناطق النوبة ودار فور ووداي، وظلت السلطة المملوكية تلاحقهم في كل مكان، وأبرز هؤلاء الجبابرة الجلادين ابن السوداء (كرسي جدات) الذي شتت شمل العرب وأذاقهم الأمرين فقرر جمعان العويصي قائد الحلف الجذامي الجهني، مواجهة ابن السوداء مهما كلفه ذلك.

فجمع العرب وقال إن من يقتل ابن السوداء أُزوجه ابنتي (جنوب) وكانت من أجمل فتيات العرب فهَمّ محمود بن رزيق بفعل ذلك؛ فسبقه ابنه بإيحاء من أمه التي خافت مضاررتها، فقابله شايق فقتله، هذه القصة لا يكاد يوجد من لا يعرفها. وليس من الشعوب الأخرى من يدركها سواهم.

تلك الرواية جزء من ثقافة العرب المحاميد وبني هلبة، ولم يعتبر هؤلاء بأن هذا الرجل رجل صالح، بل يعتبرونه عبدا لطاغية مستبد في مصر، أكل أموالهم وهجرهم من ديارهم التي هم أحق بها منه.

فمن يكون تراه؟ وما حقيقته؟ وما موقعه من الإعراب والأعراب والأتراك؟ وقيمته بين الروايتين رواية العرب المتواترة ورواية باحثينا الشيخ مكي عبد الله التجاني والدكتور الصادق أحمد آدم؟

iii. لا وجود لعرب في وداي قبل البعثة النبوية الشريفة؛

لكي تتضح لنا قصة ابن السوداء بجلاء لا بد من التعريج إلى هجرات العرب نحو السودان الأوسط، (كانم، باقرمي، دار فور ووداي) ومعرفتها وفهمها لارتباط هذه القضية بهذا الرجل؛ فهم من قتله، ولأن الباحث الدكتور الصادق أحمد آدم يرى أن ثمة قبائل عربية موجودة في هذه المناطق قبل الدعوة الإسلامية، وهذا يعتبر في رأيه مبررًا لحال ابن السوداء (الصحابي) الذي يمكن أن يكون داعية أو فاتحًا، ولهذا لا بد لنا من توضيح تاريخ العرب في هذه المناطق وعلاقتهم بها، وظهور شخصية ابن السوداء والعصر الذي حدثت فيه هذه الحوادث.

علاقة العرب بمناطق السودان الأوسط لم تكن معروفة إلا بعد مجيء الإسلام وما يذكر قبل الإسلام لا تدعمه المصادر المكتوبة، وإن كانت هناك روايات شفهية شعبية في أوساط بعض سكان كانم وباقرمي تذكر ذلك، وبناء على المعطيات المادية

والروايات الشفهية نقسم هجرات العرب إلى مناطق السودان الأوسط إلى المراحل التالية:

المرحلة الأولى: مرحلة الاكتشاف والتمهيد؛

أسمينا هذه المرحلة بمرحلة الاكتشاف؛ لأن الجنس العربي دخل المنطقة في فترة ما؛ أثناء ظهور الدعوة الإسلامية، أو قبيلها بقليل في شكل مغامرة دون سابق معرفة بهذه المنطقة؛ لكن يصعب تحديد تاريخ لهذه الفترة؛ لانعدام الآثار المكتوبة التي تركها الرواد المهاجرون في هذه الفترة؛ إلا من الرواية الشفهية التي ظل هؤلاء يتناقلونها من جيل إلى جيل. ولكننا من باب التخمين يمكن أن نقدرها بنحو(٥٥٠م)؛ إذ إن أفرادا ينتمون إلى قوم سيف بن ذي يزن؛ وصلوا إلى منطقة حوض بحيرة شاد يمثلون النواة الأولى للعروبة، وثقافتها وهؤلاء هم السيفيون.

وبرغم شح المعلومات نحاول أن نستنبط من خلال إشارات بسيطة، أوردها صاحب إنفاق الميسور، يقول فيه: "إن هناك برابرة شقوا عصا الطاعة في اليمن التي استوطنوها، وقضوا فيها زمنا، ثم طردهم الحميريون من اليمن، واستوطنوا قريبا من أرض الحبشة [ثم] وافوا كانم واستوطنوها، ووجدوا في هذا البلد عجما تحت حكم إخوانهم الطوارق يقال لهم إمكينا"(١).

يلاحظ أن البربر يعرفون هذه المنطقة في وقت مبكر في الفترة السابقة للإسلام؛ سواء أتوا إليها من الشرق إثر حروبهم مع اليمنيين، أو من الغرب؛ حيث الأرض التي استوطنوها في الشمال الإفريقي.

---

(١) بيلو، محمد: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط ١٩٩٦م ص٥٥

يقول بيلو: [١]"وزعموا [يعني الطوارق الذين هم فرع من البربر] إنه لما فتحت إفريقية انتشر من فيها من البربر وانتشرت قبائلهم إلى الغرب الجنوبي في بلاد السودان... فاستوطنوه ونفوا من به من السودانيين"[٢].

من خلال الرواية المذكورة التي أوردها صاحب إنفاق الميسور، والروايات السابقة يتضح أن الحميريين قدموا مع هؤلاء البرابرة الذين وفدوا إلى كانم واستوطنوها، وهو ما تؤكده الروايات الشفهية المحلية لشعوب الكانوري والبلالا الذين يزعمون أنهم أحفاد سيف بن ذي يزن؛ ويقولون إنهم جاءوا من اليمن والسمات البشرية فيهم ربما تؤكد ذلك؛ إذ إن الدم العربي فيهم أكثر من غيرهم، كما أن البلالا أيضا لديهم الاعتقاد نفسه؛ حيث يذكرون أنهم" فرع من الأسرة السيفية نسبة إلى سيف بن ذي يزن من حمير اليمني، وهي الأسرة التي حكمت كانم ثم كانم برنو منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) [٣]. ومثلهم في هذا الاعتقاد قبائل الباقرمي؛ إضافة إلى ذلك أن جميع حكام كانم يدعون هذا النسب الحميري، وهذا واضح في الخطاب الذي أرسله ملك كانم إلى السلطان برقوق حاكم مصر[٤].

---

(١) هوم حمد عثمان بن فودي، ولد سنة ١٧٨٠م في بيت علم ودين وأبوه عثمان مؤسس الدولة الفولانية التي استمرت أكثر من ألف سنة، وجده فودي.

(٢) بيلو، محمد :إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦

(٣) طرخان، (د) علي: إمبراطورية البرنو الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، ط القاهرة ١٩٧٦م ص٢٥ وانظر الغنيمي، (د)عبدالفتاح: الإسلام وحضارته في وسط إفريقية سلطنة البلالا، ص١٩

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٢١

وتذكر السجلات الكانمية أن سيفًا وأمه قدما "من مكة وحكم في كانم عشرين سنة، وأنه أقام في العاصمة (أنجيمي) لكنه مات في مدينة سامينا عاصمة الزغاوة؛ قرب بحيرة الفتري... وتسميه سجلات برنو (سيبو) ولعلها تحريف لسيف"(١)؛ ذلك أن كثيرا من القبائل في باقرمي من يقلب الفاء إلى(p) أي باء مهموسة.

كما ذكرت السجلات التاريخية أن (بيرم بن سيف) خلف أباه في حكم برنو، وأنه حكم ست عشرة سنة أو خمسين سنة(٢).

لكن المتفحص لهذه السجلات يدرك أنها كتبت في وقت متأخر، وبالتحديد في القرن السابع عشر الميلادي، أو نهايات القرن السادس عشر الميلادي، وخاصة في كتابات مؤرخ البلاط الملكي أحمد بن فرتوا، أو قبله بقليل. وإذا بالغنا في التقصي لا نتجاوز إلى الوراء القرن الرابع عشر الميلادي(٣)؛ بدليل رسالة الماي عثمان بن إدريس ١٣٩٢-١٤٢٤م إلى برقوق سلطان مصر ١٣٩٢م التي ذكر فيها بطش الجذاميين بالأسرة الكانمية.

أما قصة النسب إلى سيف بن ذي يزن وصلته بقريش؛ فهي فعلا خرافة كما قال القلقشندي وقد روج لها مؤرخو البلاط الملكي في برنو، وهي أسطورة من عدد من الأساطير التي احتفظت بها مملكة البرنو وحرصت عليها لأنها تتعلق بأصولها.

والثابت علميا أن سيفا وابنه ماتا في اليمن بعد الانتصارات التي حققها على الأحباش بمؤازرة الفرس، ومات إثر طعنة من حبشي استبقاه سيف في خدمته، وكان

---

(١) طرخان، (د) علي: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ٥٣

(٢) المرجع نفسه ص٥٤

(٣) نفسه ص٤

قبل البعثة النبوية بنحو عشر سنين[١].

وعلى غرار الشعب الكانمي هناك كثير من الشعوب ادعت النسب إلى عليّ بن أبي طالب. يقول العمري: "وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن "[٢]. ولا بد أن يكون هؤلاء الذين ادعوا الانتماء إلى علي ابن أبي طالب قوم لا علاقة لهم بأولئك الذين قاموا بالهجرات القديمة قبل الإسلام.

أما عن طرق هذه الهجرات؛ فبرغم شح المعلومات؛ إلا أن الواضح هو دخول هؤلاء القوم عن طريق البحر الأحمر؛ مرورا ببرزخ السويس وصولا إلى شمال إفريقية، وبالتحديد مناطق تونس وفزان، ثم انطلقوا جنوبا إلى القارة الإفريقية؛ حيث اتخذوا مواقع في وسطها وغربها. إذن الطريق الشمالي هو الطريق الأوضح لكثير من الهجرات؛ حتى تلك التي حدثت بعد الإسلام.

الذي يلاحظ في تاريخ الدول التي قامت في إفريقية، وخاصة في بلاد السودان الأوسط والغربي ادعاء حكامها الأصل العربي (السيفي، والعمري والعلوي) [٣] على سبيل الخصوص، فضلا عن القبائل التي اشتهرت تاريخيا في تلك المناطق". ومن أمثلة ذلك ملوك مالي، وملوك التكرور بل إن قبائل التورا في منطقة شاد تقول: إنها انحدرت من النبي (ﷺ) مباشرة ويدعي جزء من قبائل الهوسا، وقبائل اليوروبا،

---

(١) علي، (د) جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٣ دار الساقي، ط٤، بغداد ٢٠٠١م ص٢١١ والجوزي، جمال الدين، المنتظم في تاريخ الأمم الملوك ج ٢ تح محمد عطا، دار الكتب العلمية بريوت ١٩٩٢ ص ١٣٠ وانظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٢ دار التراث – ط ٢، بيروت ١٣٨٧هـ، ص ١٣٩ وما بعدها

(٢) العمري، مسالك الابصار، ج٢ص٤٩٢

(٣) السيفي نسبة إلى سيف بن ذي يزن، والعمري نسبة إلى عمر بن عبد العزيز، والعلوي نسبة إلى علي بن أبي طالب.

والبيدا، والبوش، بأنها قدمت أصلا من مكة"[1] ويبدو أن ادعاء النسب العربي ظهر بعد مجيء الإسلام وكون أن النبي ﷺ عربي.

تلك هي النتيجة من الناحية العرقية؛ حيث أصبح كثير من شعوب هذه المنطقة مبهورًا بالنسب العربي ومعجبا به. أما من الناحية اللغوية؛ فإننا لا نجد أي أثر للغة العربية في ألسنة جميع من ادعوا العروبة، والعرب في وداي يتحدثون العربية في أسلوب عال قريب من الفصحى، وهذا دليل على أن العناصر التي وفدت إلى هذه المناطق (كانم) لم تفد في شكل قبائل ضخمة؛ كما هو الحال في الهجرات العربية اللاحقة، بل وفدت في شكل مجموعات صغيرة جدا من قبائل في الجزيرة لها مراكز اجتماعية اضطرتها ظروف ما إلى الهجرة؛ مما جعل العامة من الشعوب المحلية تعجب بهم، وتنتمي إليهم؛ فذابت الجماعة الوافدة في الشعب المضيف بيولوجيا، وثقافيا، وذاب الشعب فيها فكرا وتاريخا.

يلاحظ هنا أن نواة العروبة كانمية وباقرمية؛ إذ لا يوجد ذكر لسيف بن ذي يزي في مناطق وداي ودار فور، كما يرجح أن وصول السيفيين إلى كانم نفسها كان في مرحلة الإسلام؛ إذ إن حملة عقبة إلى كوار لم تشر قط إلى عرب في كوَّار ، لكنها أشارت إلى بربر، وجرامانيتين، ولعل المجال لا يسع لمناقشة هذا الموضوع، وحتى لا نخرج عن موضوعنا بعيدًا، وفي كل الأحوال لم يظهر في هذه الفترة ولا في تلك الأماكن سيرة لشخص يسمى ابن السوداء الذي نعالجه في هذا البحث؛ ذلك أن الذي نتحدث عنه تذكره الروايات في مناطق دار ودّاي بل وفي قبائل بعينها، ولم يرد له في المناطق الغربية ذكر كما لا يعرف في مناطق كلاعيد وغيرها من مناطق وداي قبائل تنتمي إلى سيف ولا يعرفون حتى الحميريين؛ لأن الوجود العربي في مناطق

---

(١) طرخان، (د) علي: إمبراطورية برنو الإسلامية، مرجع سبق ذكره ص٥٨

وداي متأخر جدا ولم تكن للعرب بهذه المنطقة علاقة إلا في عصر الدولة الفاطمية وما بعدها من حكم المماليك والشركس، وبعد انهيار الدولة الإسلامية بسبب عوامل كثيرة ليس هذا مجال ذكرها. ولهذا فمرحلة الاكتشاف والتمهيد ميدانها كانمي وباقرمي وليس وداوي بدليل الأدلة المسرودة.

المرحلة الثانية: مرحلة التأسيس ٠٤٣-٠٤٧٩-٦٦٣هـ ١٠٨٦م

هذه المرحلة إسلامية بحتة تبدأ من تاريخ حملة عقبة بن نافع ٦٦٣م وتنتهي بإسلام نظام السلطنة في كانم عام ١٠٨٦م وقد أسهبنا الكلام فيها بين التاريخين وما حدث فيه من أحداث في حركة الدعوة الإسلامية، وأثبتنا أن لا وجود لصحابة في المناطق التي سميت فيما بعد بوداي، بل لا وجود لعرب في هذه المرحلة كلها في دار وداي؛ إلا ما ذكر من وصول أمويين إلى كانم عند محنتهم بالعباسيين في عام ١٣٢هـ. وفي هذه الفترة لا نعرف عن الحراك الاجتماعي في مناطق وداي شيئا. ذلك أن الحضارة في هذه الفترة مركزها كانم، بسبب الاتصال الوثيق بينها وبين مراكز الإسلام في الشمال الإفريقي. وما وداي إلا إقليم ناءٍ بها بعيد عنها معزول؛ المهم فيه أن يكون تابعا للسلطة لا أن تقوم فيه سلطة مستقلة؛ لأن كانم في فترة دونامي دبال أو دبلامي حدودها النيل.

أما عن النتائج المهمة في هذه المرحلة؛ فمن الناحية الثقافية أصبح كثير من سكان كانم مسلمين، من خلال الدعوة المباشرة، أو من خلال التأثر بهؤلاء المهاجرين؛ ذلك أن هذه الجماعات العربية الأموية التي هاجرت إلى منطقة كانم؛ كان لها دورها الكبير في نشر الإسلام بين سكان المنطقة؛ إضافة إلى جوانب ثقافية أخرى، كما نقلت إلى جانب الدين الإسلامي الثقافة العربية الإسلامية، مثل نظام الحكم؛ حيث شهدت هذه الفترة إسلام أول ملك كانمي وهو (أومي بن جلمي ١٠٨٦م) وارتبطت الدولة وجدانيا بالشرق والشمال العربي الإسلامي.

وأما من حيث التعريب؛ فقد بدأت الآن بذوره، وظهر أول ما ظهر في الطبقات الحاكمة؛ حيث ادعت النسب الأموي، ولا سيما ما يتعلق بسيدنا عمر بن عبد العزيز. تقول الروايات المحلية: إن خلفاء مملكة كانم في عصرها البرنوي ينتهي نسبهم إلى الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز. وهذه الخطوة الأولى في التعريب. وكان أسلافهم من قبلهم قد "انتموا إلى بطل حميري هو سيف بن ذي يزن، الذي عاش في الجاهلية، ولم يدرك الإسلام، ثم ذكروا أنه قرشي في الوقت نفسه. وكذلك ادعى حكام مملكة باقرمي نسبًا يمانيًا مكيًا، وفي سبيل التعريب عدلت أسماء ملوكهم التي تحمل دلالات محلية أو وثنية".[1] وإن كنا نرى أن الأسرتين الكانمية والبرنوية واحدة من حيث الرجوع إلى الخلفية الإثنية. وأما من حيث وجود العنصر العربي؛ فقد ظل قليلا، لكنه يختلف عن سابقه؛ إذ يحاول الظهور بالساحة الاجتماعية بعدما تربع على الساحة الدينية، ومع ذلك لا يكاد يذكر لهم وجود؛ حتى جاءت مرحلة أخرى ذاع صيتهم فيها، وقويت شوكتهم، وأخافوا السلطة وهددوها، أو ربما قلبوا حكمها؛ لأنهم أصبحوا جزءا من هذا المجتمع. وهو ما نناقشه في المرحلة التالية.

المرحلة الثالثة: مرحلة التحالف والاندماج وظهور الجلاد ابن السوداء ١٠٨٦-١٦٢٠م

هذه المرحلة من أهم المراحل وأكثرها أهمية نظرًا للآثار الكبيرة التي تركتها الجماعات العربية في مجتمعات السودان الأوسط في جميع المجالات: الاجتماعية، والثقافية، والدينية، والسياسية؛ نظرا لكثافة العرب المهاجرين؛ حيث فاقت أعدادهم أعداد كل القوميات في السودان الأوسط المختلفة كلّ على انفراد.

---

(١) عبدين، (برفسور)عبد المجيد: قبائل السودان الأوسط والغربي، الدار السودانية للكتب، ط١، الخرطوم ١٩٧٢م، ص: ١٠.

أما سبب اختيار هذين التأريخين؛ فلأن الأول حدث فيه تطورٌ اجتماعيٌ ثقافيٌ كبير؛ حيث ظهر الإسلام علنا داخل البيوت الحاكمة بعد أن كان يراوح ربوع المساكين في المناطق النائية، وتشابه مسيرته مسيرة الدعوة السرية أيام المصطفى ﷺ. وأما الثاني؛ ففيه حدثت آخر هجرة من الشرق؛ كان لأفرادها دور عظيم في تاريخ تشاد الوسيط والمعاصر، وأولئك هم العباسيون وبين التأريخين أحداث جسام في تاريخ تشاد والعروبة والثقافة. فما عوامل الهجرة في هذه المرحلة؟ هناك مجموعة من العوامل التي جعلت العرب يتركون مواطنهم الأصلية ويتجهون إلى مناطق السودان الأوسط؟

العامل السياسي

بعد أن انتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية وما حولها، وأسلمت جميع القبائل بها؛ اتجه العرب لنشره في البقاع المختلفة من الأرض؛ فتوجهوا إلى فارس والروم وإفريقية، وكانت مصر هي البوابة المألوفة لإفريقية، فوصلوا منها إلى برقة، وطرابلس، وقرطاجة، وغيرها. وكان لا بد لهؤلاء المجاهدين من رافد يمدهم في هذه الفتوحات، فاستقدم الحكام القبائل العربية للاستعانة بها، وبها تعربت الأرض المصرية تدريجيا، وتأثرت بالدين الإسلامي والثقافة العربية.

وأصبحت الهجرات أكثر وضوحا في العصر الأموي صاحب النزعة العربية المتشددة للعروبة؛ فاستقدم الأمويون القبائل العربية القحطانية، كما استقدموا القبائل العدنانية، ولا سيما قبيلة قيس إلى مصر سنة ١٠٩هـ"[١]،

---

(١) حسن، (د) أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، دار الفكر العربي، ط١ ١٩٩٩ القاهرة، ص١١١

يقول المقريزي: "قال الكندي: وفي ولاية الوليد بن رفاعة الفهميّ على مصر، نقلت قيس إلى مصر في سنة تسع ومائة، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك، فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتا، فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر"(١).

ولما تولى ابن الحبحاب ولاية مصر استأذن هشام ابن عبد الملك في استقدام قبائل أخرى من قيس؛ إذ عددهم قليل مقارنة بفهم وعدوان فأذن له قائلا: "أنت وذاك، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة {من} أهل بيت من بني نضر، ومائة {من} أهل بيت بني سليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم، فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب في الشهر عشرة دنانير وأكثر، ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر، فلا يمكث إلّا شهرا حتى يركب، وليس عليهم مؤونة في علف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم؛ فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فصار بلبيس: ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر. مالت إليه قيس فمات مروان، وبها ثلاث آلاف أهل بيت، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم"(٢). وهكذا يتوافد العرب حتى "أصبح عدد الأسر المقيدة في ديوان العطاء الأموي نحوًا من أربعين ألف أسرة؛

---

(١) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى: ٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ ص ١٥٢١١

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥٢١١

خدموا في جيش الدولة، واشتغلوا بالتجارة بين مصر والشام والمغرب"[١]. ومن هذه النصوص يفهم أن القبائل العربية في مصر نفسها كانت في الفترة الإسلامية باستثناء الجزء الواقع في سيناء، والذي يعد من القارة الآسيوية والتابع لفلسطين.

وقد أعطت سياسة استقدام العرب من الجزيرة العربية أكلها؛ إذ حققت الغرض الذي من أجله جلبوا؛ فقد شاركوا في البعثات الحربية، وأوجدوا التوازن الفئوي بين القبائل الوافدة، وكذلك التوازن العنصري بين الإثنيات في مصر[٢].

والمتفحص للمعلومات التي توردها المصادر العربية يدرك أن القبائل المهاجرة خلال العصر الأموي قد وجدت في منازلها الجديدة عزا كبيرا، وعاشت رفاهية عالية، وأصبحت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، "وكانوا يتسلمون رواتب شخصية، ولا يؤدون ضرائب في مقابل ذلك، ولكي يحافظوا على مقدرتهم الحربية؛ حرم عليهم في البداية اقتناء الأرض، أو العمل بالفلاحة، حتى لا ينشغلوا بها عن الجيش والفتوحات. لكن في أواخر عهد الدولة الأموية، بدأت جماعات منهم تحترف الزراعة؛ إذ رأت السلطة أن ذلك مفيدا أيضا؛ فتوزع لهم الأرض ويُعفون من الضرائب والخراج، وبدأوا الاختلاط بالمصريين، وكان ذلك بداية التعريب والأسلمة"[٣].

يقول المقريزي: "وكان العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات، والرايات على أيادي العرب؛ فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهله في دورهم...وكان بمصر، في خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعون ألفا، وكان معاوية قد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥١

(٢) بشير، محمد: أصول البقارة في دارفور، المركز السوداني للدراسات الإفريقية، الخرطوم، ص٢٢

(٣) حسن، (د) يوسف فضل: دراسات في تاريخ السودان، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، ١٩٧١ص٣٢ وانظر محمود، حسن: الثقافة الإسلامية في إفريقية، ص١١١

جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر، رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: وُلد لفلان غلام، ولفلان جارية، فيكتب أسماءهم، ويقال: نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله، فيسميه وعياله فإذا فرغ من القيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك، وأعطى مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم، وأرزاقهم ونوائبهم"[1].

سقطت الدولة الأموية العروبية المشجعة على هجرة العرب وتوطينهم في مصر، إلا أنهم لم يتوقفوا عن الهجرة العفوية الطوعية إلى مصر، برغم تراخي العباسيين عن العروبة، وتقريبهم الموالي وإعطائهم شؤون الدولة؛ فقد قدم إلى مصر العديد من القبائل العربية، وخاصة قبائل ربيعة التي اتخذت من صعيد مصر مستقرا لها.

واستمرت الهجرة "في ظل النفوذ الفاطمي في مصر؛ فقد هاجرت قبائل من طيء، وقبائل من فزارة كما وجد الفاطميون أن قبائل سليم، وهلال، تثير اضطرابا وإزعاجا في الجزيرة العربية؛ فشجعهم الخليفة المعتز بالله الفاطمي على الهجرة إلى مصر، وأنزلهم بصعيد مصر؛ فأصبحت مصر المستودع الثاني للعرب بعد الجزيرة العربية؛ حيث حوت جميع قبائل العرب، فمن عرب الجنوب: جذام، وطيء، وبلي، وجهينة، ونحوهم. ومن عرب الشمال: كنانة، وقيس، وفزارة، وهوازن، وهلال، وسليم "[2]. وقد فصل المقريزي مساكنهم بمصر. في كتابه البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. وهذه القبائل نفسها هي التي هاجرت إلى كانم ووداي ودار فور.

---

(١) المقريزي: الخطط ص.١١٧٦

(٢) محمود، حسن: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره ص٨٧

تفشي العنصرية في مصر الإسلامية: (إقصاء العرب عن الإدارة)

ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، حصلت هناك تطورات كبيرة: أهمها سيطرة الموالي على شؤون الدولة، ومحاولة السلطة العباسية الاستغناء عن العرب، والاعتماد شبه الكامل على الموالي؛ فلما قويت شوكة الموالي، بدأوا في التضييق على العرب، وسلبهم مميزاتهم العسكرية، والإدارية، والمالية؛ إضافة إلى فرض ضرائب جديدة عليهم، ومضاعفتها، وقطع الرواتب، والعطاءات انتقاما منهم؛ لمواقفهم مع بني أمية.

وبلغ الأمر مداه في عهد المعتصم بالله[١](٨٣٣ –٨٤٢م) حيث كان المعتصم مائلًا إلى الأتراك؛ فقربهم واعتمد عليهم في قيادة الجيش، "وأثبتهم في الديوان، وأمر واليه في مصر كيدر بن نصر الصفدي بإسقاط جميع من بديوان مصر من العرب، وقطع العطاء عنهم، وأدى هذا القرار الخطير إلى ثورة عربية ضد الموالي في مصر"[٢]. وانتهت الحرب بهزيمة العرب الذين ثاروا عليه، وأسْر زعمائهم. وهنا يحدثنا المقريزي قائلا: "فانقرضت دولة العرب من مصر، وصار جندها العجم، والموالي من عهد المعتصم إلى أن ولي الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر، فاستكثر من العبيد، وبلغت عدّتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركيّ، وأربعين ألف أسود، وسبعة آلاف حرّ مرتزق..." [٣].

---

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور، أبو إسحاق، المعتصم بالله

(٢) ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٢، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصدر ص ٢٢٣ وانظر مسعد، مصطفى: ص١٢٣

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١٨ هـ، ص١٧٧

ومن ثم بدأت هذه القبائل الرافضة للسياسة الإقصائية العنصرية العدائية؛ البحث عن مخرج من وضعها المذري؛ فلم تجد بُدًّا من ترك الريف المصري: إما من تلقاء نفسها؛ فتهاجر إلى خارج مصر، متجهة غربا نحو برقة، ومنها إلى فزان، ثم إلى مناطق السودان الأوسط؛ كانم وما يليها. أو من خلال الحرب التي يتعمد المماليك شنها عليهم.

وآخر مسؤول عربي كان في إدارة الجيش هو عنبسة بن إسحاق، وقد عزله المتوكل (٨٤٧-٨٦١) [١] ومنذ أن "عزل لم يعد حكام مصر يُختارون من العرب، بل من الأتراك الذين يكرهونهم، ويحقدون عليهم. وبهذا فقد العرب نفوذهم القديم، وعانوا ضيقا اقتصاديا شديدا؛ بسبب ما فرض عليهم من إتاوات، وضرائب مختلفة؛ ابتدعها والي الخراج في مصر من سنة (٨٥٢-٨٦٧م)، وأثارت التدابير المالية الجديدة حفيظة العرب على الأتراك؛ فقاموا بعدة ثورات في أنحاء مختلفة، قمعها الأتراك والمماليك بعنف وقسوة، وزج بزعمائهم في السجون، وفرضت عليهم خراجات باهظة"[٢].

ومن هنا ضاقت الأرض بالعرب، إثر هذا الضغط السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، في النهج الذي انتهجه العباسيون من جهة، والضغط العنصري المتمثل في نظرة الأتراك والمماليك فيما بعد من جهة أخرى، وكان لهذين الاتجاهين "أسوأ الأثر في نفوس العرب؛ فبدأ بعضهم يهم بالرحيل، والهجرة، ولم يكن أمامهم إلا الانتقال جنوبا، وغربا؛ بعيدا عن ضغط الأتراك في مصر؛ فوصلوا مناطق النوبة وما

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مصدر سبق ذكره، ج٤ص٣٤٦

(٢) مسعد، (د) مصطفى: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره ص١٢٤، وانظر المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١مصدر سبق ذكره ص ١٦٨-١٦٩

حولها، ولما طاب لهم المقام والرعي بعثوا يستدعون إخوانهم؛ فاندفعوا في أثرهم؛ فواصلوا من ثم سيرهم إلى أن وصلوا الفيافي الواسعة في السودان الأوسط(١).

وهكذا في كل المراحل السياسية في مصر منذ العصر العباسي، وإلى نهاية حكم المماليك كانت السياسة السائدة هي محاربة العرب، واستبعادهم، ونفيهم إلى بلاد الزنج، وقد بلغ عداء المماليك للعرب في مصر أنهم يفرضون على ملوك النوبة المسيحية معاداة العرب، ويهددونهم بألا يتركوا أحدا من العرب في بلادهم، وقد حدث ذلك في عهد السلطان بيبرس في عام ١٢٧٥م(٢). وأبرز القبائل الراحلة إلى بلاد النوبة: الحلف الجهني، ورفاعة، والحلف العركي.

هذه السياسة العدائية أجبرت العرب على أن يلتفوا حول كتل كبيرة، ويشكلوا أحلافا للتصدي لسياسة المماليك، والأتراك العنصرية. (٣)وقد هامت بعض القبائل العربية إلى الجنوب الغربي بعد اصطدامها مع المماليك: كقبائل جذام، ولخم، وهلال وسليم، وتدفقوا إلى السهول الشمالية الشرقية لمملكة كانم، في عهد الملك قطز بك، وقد وصل بعض هؤلاء الفارين من بطش المماليك إلى بلاد كانم مما أفزع سلطانها؛ فاشتكى منهم إلى السلطان برقوق حاكم مصر. ويطلب إلى السلطان المملوكي أن يتعقبهم في مصر، وأن يقبض عليهم، ويوقع بهم أشد العقاب. حيث استفاد هذا الحاكم الكانمي من العداوة التقليدية الأبدية بين العرب والأتراك والمماليك. ويظهر أن هذه الجماعات –أو بعضها –قد تدفقوا شرقا، حوالي سنة ٧٩٤هـ –١٣٩١م حتى بلغوا شمالي دارفور، وقضوا على حكم الزغاوة هناك. و"قد عرفنا أن الجذاميين

---

(١) حسن، (د) محمود أحمد: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص

(٢) رجب، (د) عبد الحليم: العروبة والإسلام في دار فور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة (ب ت) مرجع سبق ذكره، ص٥٨

(٣) مسعد، (د) مصطفى: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره، ص١٦٨

وقرناءهم اللخميين، قد أبعدوا عن مساكنهم في عهود الفاطميين، والأيوبيين إلى أطراف مصر، وقد كانت هذه الأطراف منذ القرن السادس الهجري مسرحًا لحركات الهلاليين وأحلافهم، عقب الغزوات التي شنوها على شمال إفريقية، وربما انضم الجذاميون وجماعتهم إلى الهلاليين هؤلاء، ثم تدفقوا على السودان الأوسط، ومنه تحركوا بهجرة عكسية إلى أواسط كانم، وأحدثوا من القلاقل ما دعا سلطان البرنو إلى أن يفزع إلى سلطان المماليك في مصر(١). والأمر نفسه بالنسبة إلى الحلف الجهني الذي تدفق إلى الأطراف الشرقية لمملكة كانم، وملئوا سهولها ورباها، وانتشروا إلى مناطق دار فور وكردفان ووداي.

تهيأت للعرب فرصة كبيرة عقب تأسيس الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون٨٦٨هـ؛ حينما أعلن عن "حملة تأديبية (٢) لبلاد النوبة؛ حيث حاول هذا السلطان ومن جاء بعده استغلال العرب في الحروب ضد النوبة، واستغل العرب من جانبهم هذه الفرصة كي ينأوا بأنفسهم بعيدا عن أحقاد المماليك وعدائهم.

عامل العنصرية:

ظل التصادم بين العرب والسلاطين المماليك قائما؛ فقد أصبح العرب يمثلون ناقوس الخطر لهؤلاء السلاطين؛ فمنهم: من تعامل معهم بالحسم العسكري، ومنهم من قسا عليهم في حكمه بالضغط حتى يستفزهم من الأرض، ومنهم من داهن واستعمل أسلوبا آخر: هو إشراك العرب في الحملات العسكرية ضد النوبة؛ فاستجاب العرب لهذه الدعوة، وأول من استخدم هذا الأسلوب أحمد بن طولون مؤسس الدولة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١ ص ٣٥٨ وانظر رجب عبد الحليم: العروبة والإسلام في دارفور، في العصور الوسطى ص٦٠

(٢) مسعد، (د) مصطفى: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص١٢٤

الطولونية ٨٦٨ هـ الذي بالغ في حروبه ضد النوبة؛ فزج بالعرب في هذه الحرب بهدف إبعادهم عن مصر، ورميهم في مستنقع خطر النوبة: الدولة المهددة للسلطة المملوكية.

جهز المماليك لحرب النوبة وقودها، والوقود هذه المرة هي القبائل العربية، وقد قبل العرب بهذا العرض لا طاعة للمماليك، ولا حبا في الحرب، ولكن لكونها تشكل لهم مخرجا من الضيق الذي يعيشونه؛ فحينما كان هدف المماليك من خطتهم التخلص من العرب؛ كان هدف العرب البحث عن أماكن استقرار جديدة، ومنذ العصر الطولوني، وإلى نهاية عصر دولة المماليك في مصر كان هذا هو الأسلوب المتبع، حيث شارك العرب بكثافة في الحرب ضد النوبة، والبجة، وأغلب القبائل المشاركة في الحملات الحربية في هذه الفترة؛ قبائل جهينة وربيعة(١).

وهكذا انتهزت القبائل العربية فرصة الحملات العسكرية بالمشاركة فيها. وبعد انتهاء الحرب تستقر القبائل العربية في أماكنها الجديدة؛ بل تواصل في اكتشافها للمجاهيل، والأدغال التي وجدوا فيها منافع جمة.

وبسبب العوامل السياسية والعنصرية من المماليك، والأتراك، وكل أعداء العنصر العربي؛ اتجه العرب نحو الغرب والجنوب، وطبعت هذه الهجرات بالسلمية أحيانا، وطابع الحرب أحيانا أخرى؛ فحينما يرفض المواطنون المحليون وجود العرب المهاجرين بينهم، أو في الأرض التي يدخلونها؛ يصر العرب على البقاء، أو العبور؛ فتكون الحرب. يقول ابن خلدون" وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكثروا هنالك سائر الأمم، وغلبوا على بلاد النوبة، وفرّقوا كلمتهم، وأزالوا ملكهم، وحاربوا

---

(١) رجب، (د) عبد الحليم: العروبة والإسلام في دارفور، في العصور الوسطى، ص٥٢

الحبشة؛ فأرهقوهم إلى هذا العهد"[١].

يفهم من كلام ابن خلدون أن العرب في تقدمهم جنوبا قتلوا كثيرا من النوبيين، وأسروا بعضهم، حتى اضطر كثير من النوبة إلى الهجرة غربا إلى تلال النوبة في كردفان[٢].

إلا أن مكمايكل له رأي آخر في طبيعة الهجرات العربية، ويرى أن أغلبها سلمي؛ لأن كل الدلائل تشير إلى أن النصر باستثناء أقاليم معينة كإقليم جبال النوبة يكون بالتراضي؛ حيث لا يزال العرب يمتلكون السهول على حين يسكن الزنوج التلال، وما يكتسب بالاتفاقات والتزاوج أكثر مما يكتسب بالقوة والسلاح[٣]. وهكذا طابت نفوس العرب للأماكن الجديدة؛ فأخذوا يتبعون مساقط الغيث إلى أن وصلوا إلى أعماق كانم، كما اندفع جزء منهم إلى الجنوب؛ فوصلوا مناطق كردفان، ودار فور، والمناطق الشرقية في وداي[٤].

يضاف إلى العوامل السابقة سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨م واستبداد التتار بالعرب والثقافة الإسلامية، وقد تسبب هذا السقوط في كثير من هجرة العرب إلى إفريقيا والسودان الأوسط بصفة خاصة[٥]؛ إضافة إلى العامل الاقتصادي؛ إذ الأعراب البدو يتجولون بسوامهم إلى الفجاج الواسعة؛ لكي لا يشعروا فيها بالضيق. ومنطقة حوض بحيرة شاد منطقة طقسها معتدل، وأجواؤها شبيهة بأجواء الجزيرة

---

(١) ابن خلدون: ج مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٦

(٢) مسعد، مصطفى: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ٢٣٤ وانظر رجب (د) عبد الحليم: العروبة والإسلام في دارفور، في العصور الوسطى، ص ١٩٢

(٣) ماكمايكل: الإسلام في السودان، ص ٦٦

(٤) مسعد: (د) مصطفى، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، ص١٧٦

(٥) رجب، (د) عبد الحليم: العروبة والإسلام في دارفور، مرجع سبق ذكره، ص٦٣

العربية؛ فيجدون فيها صحراء تشابه صحراءهم، وأودية ترتاح لها قطعانهم(١)؛ فاتجهوا جنوبا باحثين عن الكلأ، حتى وصلوا إلى حواف الغابة في جنوب الصحراء الكبرى.

يتضح مما سبق أن لا وجود لعرب – بالصورة الثقافية الموجودة الآن – في منطقة وداي والممالك الإسلامية الأخرى (مالي – كانم – باقرمي) قبل دخول الإسلام إليها، بل إنها وفدت إلى هذه الممالك كقبائل كثيفة في فترات متأخرة، وأغلبها من القرن الحادي عشر الميلادي. ووصل انتشارهم مداه في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي. وخلال هذين القرنين ظهر من ضمن جلادي السلطة المصرية المملوكية اسم البغدادي ابن السوداء الذي يعتبر أحد عباد الطغاة في هذه الفترة.

وأكثر الباحثين الذين تناولوا هذه القصة بالتحليل الدقيق ضمن دراسات هجرات العرب الأستاذ المؤرخ والأديب إبراهيم إسحاق في كتابه (هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان)؛ متحدثا عن هجرة الهلاليين والجذاميين والجهنيين ولا سيما في الحلف الجذامي: إن هذه الأحلاف الضخمة بعد اصطدامها مع السلطة المملوكية في مصر اتجهت نحو الجنوب حتى اكتشفوا مراعي المرتفعات الصحراوية في العوينات والكفرة والجلف الكبير، وما يليها جنوبا وذلك في حقبة من العصور منذ الفاطميين إلى العثمانيين، وربما التقت أخبارهم هنالك في الصحراء، وتواصلوا مع طلائع أعقاب الهلالية المنحدرين من المغرب ممثلين في فزارة والعطاوة وحلفائهم منسابين من الشمال تجاه معابر الصحراء الكبرى إلى الجنوب ثم إن السلطة في مصر تابعتهم وأرسلت وراءهم مندوبا ليجمع منهم الضرائب ويحفظهم في

---

(١) سماعين، أحمد عبد الرحمن: دراسة صوتية دلالية للهجة العربية التشادية الأدبي الشعبي ببادية الإقليم الشرقي نموذجا، رسالة ماجستير، معهد الخرطوم الدولي، ٢٠٠٨م ص٣٩

الحدود التي تطولهم فيها أيادي حكامهم، ونظرا للصدام المستمر بينهم وبين المماليك في مصر يرفض العرب دفع الضرائب واغتيال مندوبي السلطة ومن بين من قتل من مناديب السلطة المندوب المرسل وراء تلك الأحلاف وكان اسمه على قول الرواة بدار فور بغدادي ولد السودة(١). فإذا كان هؤلاء العرب من سهول البطحاء إلى روابي وداي المترامية إلى دار فور والمجلد في كردفان يروون هذه القصة بهذه الصورة، وتعتبر عندهم في مقام الخبر المتواتر؛ فمن أين جاء باحثونا بصحبة هذا الرجل الطاغية لرسول الله ﷺ وبينهما ما يربو على الستة قرون!

من يطلع على كتاب هجرات الهلاليين للمؤرخ والأديب إبراهيم إسحاق؛ يلاحظ متانة التحليل العلمي للحراك الاجتماعي الذي دار في مناطق الشمال الإفريقي والسودان الأوسط مع اتباع منهجية غاية في الرصانة والدقة، وعندما أتى لابن السودة لم يسمع بهذه الأقوال الواهية التي تردد صداها في أذهان مثقفينا وعلمائنا بل قال بعد أن أورد رواية العرب المذكورة: وربما كان البغدادي بن السودة هذا رجلا من البربر كانوا يوظفون في منطقة الصحراء الغربية بمصر، كما نجد في أسرة آل عبدون بواحة الداخلة أيام المماليك وقد كان السلطان برقوق مهجرا للهوارة البربر في صعيد مصر عام ١٣٨٢م أو قد يكون انتماء ابن السودة هذا إلى المغاربة البربر الذين شاع توظيفهم في مصر إلى مراكش في أجهزة الدولة المهيمنة في تلك البقاع لعهود طوال. وهذا الاحتمال لا ينفي احتمال رجوع اسم البغدادي ابن السودة إلى أي مملوك مصري عرف بأمه السوداء"(٢).

---

(١) إبراهيم إسحاق إبراهيم: هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، الرياض ١٩٩٦م ص١٥٥

(٢) المرجع نفسه ص ١٨١

حقا إن هذا المؤرخ والمحلل الكبير لم يسمع بما تناولته هذه الجماعة العلمية السطحية من خبر صحبة هذا الجلاد للنبي ﷺ ؛ وإلا لاستزاد في التحليل كثيرا عن هذا النكرة الذي قدر له أن يكون علما في مخيلة بعض الباحثين الذين هم جدد في البحث.

تلك هي رواية العرب وتحليل المؤرخ إبراهيم إسحاق عن ابن سودة كما يكتبه الشيخ عبد الله وعبد الرحمن ابن الأسود كما اختلقه الدكتور الصادق.

iv. عوامل ثانوية ونتائج جوفاء

فصل الباحث بين مصطلحين لا نرى فارقا بينهما ألا وهما العوامل والوسائل التي انتشر من خلالهما الإسلام إلى منطقة وداي وسواء أكان بينهما تباين أو اتحاد؛ فإنه جعل العرب عاملا من العوامل التي ساعدت مع كونهم غير مسلمين في نظره؛ لأنهم كانوا يقطنون هذه البلاد قبل البعثة النبوية؛ حيث يقول الصادق: "الوجود العربي داخل سلطنة وداي منذ زمن بعيد وقبل بعثة النبي ﷺ؛ مما أدى إلى صعوبة تمييزهم عن الأفارقة (إذ) اختلط الدم العربي بالدم الزنجي.

وقد تحدثنا باستفاضة عن عدم وجود عرب في هذه المناطق قبل بعثة النبي ﷺ. أما الحديث هنا فيدور أن ثمة وسائل أو عوامل ذكرها الباحث ساعدت في نشر الإسلام وهي: الدعاة والعلماء والتجار.

إن الوسيلتين الأوليين واحدة في نظرنا؛ إذ لا يوجد عالم دون أن يكون داعية في ذاك الوقت والعكس يصح أيضا، ولهذا فهو عامل واحد، لكن يبدو من خلال طرحه أنه تحدث عن الدعوة حديثا نظريا دون أن يرينا دينامية الدعوة في هذه المنطقة، كما هو حالها في منطقة كانم في الفترة التي دخل فيها الأمويون الدعاة الذين ظهروا في القرن الثامن الميلادي، من خلال العالم الهادي العثماني الذي قام

بدور دعوي كبير في أوساط الجهات الرسمية ولهذا ذكرته المصادر بأنه من نشر الإسلام في كانم وإن كنا نعتقد أن غيره من الدعاة كثر.

هكذا نحسب أن يكون للباحث تصور عملي لحركة الدعوة الإسلامية ويعطينا – رغم شح المعلومات في هذه المنطقة – نماذج وصورا حية لها في هذه المناطق. والعلماء الذين ذكرهم ظهروا في ظل مجتمع مسلم أي بعد نشأة السلطنة بنظامها الإسلامي في عهدها الثاني، أي بعد اعتلاء عبد الكريم جامع عرشها، ومعروف أن الإسلام كان منتشرا في هذه المناطق قبل عبد الكريم جامع، إلا أن عبد الكريم نفض عنه الغبار وكساه ثوبا جديدا. فدوره فيه هو دور البعث والحيوية من خلال نشر التعليم وتصحيح المفاهيم الخاطئة العالقة بالإسلام. ومحاولة توسيع رقعته في إطار دولة رسمية النظام تتجاوز الأطر التقليدية الضيقة إلى دولة مترامية الأطراف.

أما عامل التجارة فهو عامل هامشي جدا، ولا يمكن أن ينافس عاملا آخر أكثر منه أهمية؛ غير أن الباحث لم يورده ضمن ما ذكر من وسائل، وهو (الانتشار العربي) كأكبر عامل أو وسيلة انتشر من خلالها الإسلام، وإن كان باحثنا لا يروق له هذا؛ إلا أنها الحقيقة وسنحاول باقتضاب يسير أن ندلل على ما نزعم.

الباحث يعترف أن ثم تلاحما واختلاطا شديدا بين العنصر العربي و(الزنجي) مما أدى إلى صعوبة التمييز بينهما، وهذا كلام صحيح لدرجة عالية جدا، وإن كنا نحلل بطريقة لا يرتضيها الباحث.

ليس في وسعنا أن ننكر أن هذا الاختلاط والتلاحم قد ولد كثيرا من القواسم المشتركة بين العنصرين؛ إذ ترك التعايش آثارا متبادلة؛ حيث ترك المحليون في العرب دماءهم وكثيرا من السمات البيولوجية وهي واضحة في معظم العرب في تشاد، وترك العرب في السكان المحليين ثقافة ولغة وفكرا تتمثل في التعريب العرقي واللساني والثقافي فإن كنا نؤمن بهذا فكيف نكفر بأثرهم الديني فيمن اختلطوا معهم؟

إن الحراك الثقافي والديني بين الشعوب في هذه المناطق تفسره مجموعة عوامل مثل: هامشية دار وداي وانعزالها الأمر الذي جعلها تختلف عن نظيراتها في الطرف الغربي مثل كانم ومالي في عملية الحراكي الفكري المتنامي.

ولأن مناطق وداي نائية وبعيدة كانت مجموعات البدو العربية تقصدها وتؤثرها على غيرها من المناطق الأخرى التي تكون فيها قبضة السلطة – أيّا كانت– قوية وعين الرقابة ساهرة فاتجهت هذه المجموعات ظاعنة في سهول البطحاء ووداي حتى الحدود الغربية لدار فور وبرغم سطحية إسلام هؤلاء البدو إلا أن تأثيرهم على المنطقة كان قويا(١).

يقول البرفسور عبد الحميد أحمد بخيت في دور البدو من العرب كعامل أساسي في نشر الإسلام: "إن تحليل الظروف التي نشأت فيها سلطنة وداي والتي صبغتها بتلك الصبغة الإسلامية والعربية الواضحة توحي بأن حالة البداوة التي يعيشها العرب الظاعنون في سهول تلك المنطقة أسهمت بقدر كبير في عمليات التغيير والتحول إلى الإسلام، وهذا أمر له دلالاته التاريخية الهامة؛ ذلك لأن ظعن البدويين وانتشارهم في مساحات واسعة وما ينتج من ذلك من تفاعل مع السكان المحليين؛ كان له تأثير كبير وسط المجتمعات أدى في النهاية إلى أن تقبل معتنقات الوافدين وتتبني ثقافتهم وسلوكهم. ولما كانت البداوة بطبيعتها نشاطا يقوم أساسا على الانتشار الواسع في مساحات شاسعة؛ فإنها بذلك تختلف عن التجارة التي يركز عليها الباحثون بصورة خاصة ذلك لأن التجارة بطبيعتها تتبع في العادة خطوطا محددة ذات امتداد طولي

---

(١) بخيت (بروفسور) عبد الحميد أحمد بخيت: بعض سمات وديناميـة الحركـة التاريخيـة فـي علاقتها مع عمليات نشر الإسلام والتعريب في سلطنة وداي، ندوة اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل، جمعية الدعوة الإسلامية، ط١ طرابلس ٢٠٠١م ص ٣٩٧

ضيق هي ما يطلق عليه اسم الطرق التجارية مما يوحي بأن تأثيراتها الثقافية ربما اقتصرت على المجموعات المتواجدة على طول امتداد هذه الطرق"[١].

ولهذا فالبداوة العربية كانت أكبر عامل لنشر الإسلام في مناطق دار وداي، وأكثر أثرا من التجارة التي اعتمد عليها باحثنا في درجة خاصة.

أما النتائج التي توصل اليها الباحث؛ فلا تتجاوز البديهيات التي يعرفها التلاميذ في الصفوف الإعدادية برغم الخطأ الجوهري الذي فيها؛ فأول نتيجة طالعنا بها الباحث من خلال سياحته في هذا الموضوع المهم هي استنتاجه بأن " دولة تشاد الحديثة تكونت من السلطنات الثلاث الكبرى (سلطنة كانم – سلطنة باقرمي – سلطنة وداي). بالطبع هذا الكلام غير دقيق؛ فقوله تشاد الحديثة يوحي بأن هناك تشاد القديمة، وهو أمر لا يصح، وقوله إنها مكونة من السلطنات الثلاث أيضا غير دقيق؛ لأنها جزء من السلطنات وليست هي المكون لها.

والنتيجة الثانية مثلها في القيمة؛ إذ لا تعتبر نتيجة لهذه المقالة؛ علاوة على الأخطاء التي فيها، كقوله: " نتيجة لدخول الإسلام منذ النصف الأول من القرن الهجري في السلطنات الإسلامية الكبرى... أصبحت دولة تشاد الحديثة إحدى الدول الافريقية التي انتشر فيها الإسلام بصورة كبيرة"[٢]. ونحن نقول: لا توجد سلطنات إسلامية ولا غير إسلامية، في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وليس ثمة ما يشير إلى سلطة قائمة بل مجتمع بدائي قائم على الأسرة أو القبيلة ولا نظن أنه وصل إلى مستوى الشعب أو الأمة.

---

(١) نفسه، ص٤٠٣

(٢) الدكتور الصادق أحمد آدم: مرجع سبق ذكره. ص٣٦

وإن تعجب فعجب توصيته التي يقول فيها بالنص: "نوصي بتخليد ذكرى سلطنة وداي الإسلامية التي قامت بدور كبير في نشر الإسلام واللغة العربية في تشاد بالاحتفال بمرور ألف وأربعمئة عام من دخول الإسلام فيها"(١). لا نمانع في التفاعل مع هذه التوصية ولكن نوجه سؤالًا للباحث المؤرخ الدكتور الصادق من أين وجد أن عمر الإسلام في دار وداي قد بلغ ألفا وأربعمئة عام؟!! الذي نعرفه أن سلطنة وداي قامت في القرن السابع عشر، وإن كان المجتمع قبل ذلك مجتمعًا إسلاميا؛ إلا أننا لا نستطيع أن نحدد عاما معينا نعد منه عمر الإسلام فيها. لكن يمكن للكواريين (سكان كوار) في شمال النيجر اليوم أن يحتفلوا بمرور ألف وثلاثمئة وخمسة وتسعين عاما.

٧. النتائج:

توصلنا من خلال مناقشتنا لبعض الخطوط الرئيسة التي وضعها الباحث الدكتور الصادق أحمد آدم إلى النتائج الآتية:

- حملة عقبة بن نافع الفهري على بعض الكور من بلاد السودان وقعت في عام ٤٣هـ الموافق لعام ٦٦٣م. وهذا تسنده عشرات المصادر التاريخية أوردنا منها ما يسره الله لنا. وإن ما ذكره ابن عبد الحكم من عام ٤٦هـ يفسر بالاضطرابات والردات التي شهدتها المناطق المفتوحة في لواتة وغيرها من المناطق في إفريقيا(تونس).
- من خلال البحث لم يثبت أن وصل صحابة من صحابة رسول الله ﷺ إلى مناطق: فضاء، وكلاعيد وأم شعلوبة وعراضة؛ بل إن هذه المناطق حديثة

(١) نفسه ص٣٦

النشأة مع وصول العرب في القرون الثاني عشر إلى السادس عشر ولا سيما القرن الرابع عشر الميلادي، وهي من تسمياتهم دون أدنى شك.

- إن ما ذكر أو ما يتلقفه الباحثون من صحبة ابن السوداء كلام لا أساس له من الصحة، بل ما يُتداول مبني على اعتقادات العامة الفاسدة. مثل قولهم (صلاة الرسول) للصخرة التي وجدت فيها آثار الصلاة، يتبركون منها، وما زال العامة يعتقدون أن الرسول ﷺ صلى فيها. بل إن شخصية البغدادي ابن السوداء قد ظهرت في أصح الاحتمالات في القرن الرابع عشر حينما تدفق العرب من صعيد مصر إلى الجنوب من دار فور ووداي كما حصل للجهنيين ورفاعة وفزارة والعطاوة. وإلى الجنوب الغربي كما كان من بعض الجهنيين وجذام وعدوان وغيرهم. أو من خلال الهجرة العكسية من تونس كما حصل من الهلاليين وبني سليم وبني عقبة وغيرهم، وهو أي ابن السوداء من جلادي السلطة في مصر المملوكية.
- لم يوجد عرب في الفترة السابقة للإسلام في مناطق وداي كما زعم الصادق وإنما العرب فيها يعود وجودهم إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وإن تعداه فلا يتجاوز الثاني عشر الميلادي.
- هامشية دار وداي وعزلتها شجعت البدو من العرب في اقتحامها ومغازلة وعرها، مما جعلهم يتكاثرون فيها ويتفاعلون مع أهلها مما نتج عنه اعتناق الدين الإسلامي من طرف المحليين والتحدث باللغة العربية ولهذا فالوجود العربي أكبر عامل ووسيلة لانتشار الإسلام في وداي. هذا والله من وراء القصد.